عرفان السيِّد ابن طاووس
دراسةٌ تحليليَّةٌ في الأفكار العرفانيَّة
للسيِّد ابن طاووس (القسم الثاني)

الدكتور محمَّد هادي فلاح

ترجمة : أيُّوب ناصر نعمة

مراجعة : أ.د عليّ عبَّاس الأعرجيّ

مركز تراث الحِلَّة

The Mysticism of Sayyid Ibn Tawus
An Analytical Study of Sayyid Ibn Tawus›s
Mystical Thoughts (Part Two)

Dr. Muhammad Hadi Falah
Translated by: Ayyub Nasser Ne'mah
Reviewed by: Prof. Ali Abbas Al-Araji
Hilla Heritage Center

الرؤية الكونيَّة عند السيِّد ابن طاووس

كثيرًا ما يفسِّر السيِّد ابن طاووس الرُّؤية الكونيَّة العرفانيَّة على أساس وحدةِ الشُّهود، أو وحدة الوجود[1]، وأنَّ السيِّد قريبٌ للزَّمان التي طُرحتْ فيه وحدةُ الوجود[2]، ومفادُ هذه النَّظرة: أنَّ العُرفاء يرون واحدًا، ولا يرون غيَرَه، وغيره لا مطابقَ له في الواقع، مع أنَّه لا يُفرض ثانٍ مع الحقِّ، يعتقد بالعلَّة، والمعلول[3]: «الحمد

(١) بعض الباحثين يفرِّق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود، يقول الشهيد مطهَّري: «كانت مسألة وحدة الوجود مطروحة في العرفان قبل ابن عربيّ، ولكن حتَّى ذلك الوقت لم يستطع أصحاب النظر، والعلماء من القطع بأنَّ الوحدة التي يدَّعيها العارف هل هي وحدة شهود أم أنَّها وحدة وجود؟ وبعباره أخرى: إنَّ هذه الوحدة التي بحثها العرفان هل هي وحدة لها صفة إنسانيَّة؟ ومعنى ذلك أنَّ العارف يصل مرحلة لا يرى معها غير وجود الله، كما يقول سعدي: (ما معنا): «قد يصل الإنسان لمقام لا يرى فيه سوى الله من شيء في هذا الكون».
أم أنَّها وحدة واقعيَّة، ومعنى ذلك أنَّه على مستوى الواقع والحقيقة لا يوجد شيء في هذا العالم سوى الحقِّ تعالى.
والفرق بين المسألتَين كبير جدًّا، فالأولى: مسألة متعارفة، فالعارف لشدَّة تعلُّقه بالحقِّ تعالى، وشدَّة عشقه له؛ لا يرى غير معشوقه ومحبوبه في هذا العالم، وحتَّى لو نظر لشيء غير محبوب، فإنَّه يرى منه ذلك المحبوب، وهذه هي حالة العشق، وهو يحدث في الحبِّ الطبيعيّ لغير الله سبحانه، فالمحبُّ لشدَّة وجده لا يعرف في الكون سوى ما يحب، فكيف لو كان حبُّ الله». شرح المنظومة، المطهَّري: ١/ ٦٤ (م).

(٢) لا يخفى أنَّ مسالة وحدة الوجود كانت مطروحة في القرن الثالث والرابع الهجريّ، ولكن أوَّل من نظَّر لها بهذا الشكل هو ابن عربيّ (٥٥٨-٦٣٨هـ)، فهو معاصر للسيِّد ابن طاووس (٥٨٩-٦٦٤).

(٣) نبَّه المؤلِّف على أنَّ السيِّد يعتقد بالعلَّة والمعلول؛ لكي لا يُفهَم منه أنَّ السيِّد يعتقد كما يذهب إليه بعض المتصوِّفة لا وجود للعلَّة والمعلول وإنَّما هو وجود واحد فارد، فعبر القول بالعلَّة والمعلول ينفي هذا الاحتمال عن اعتقاد السيِّد.

لله المتجلِّي لعباده من أُفق الألباب»[١].

«وتجلَّى لهم في آفاق ما اختصَّ به من مقدوراته، وأراهُم في مرآة آياته في خلق ملكوته، وسماواته، ما كان كافيًا، وشافيًا في الدَّلالة على مقدَّس ذاتهِ، وعظيم صفاته»[٢].

وأنَّ السيِّد يعتقد أنَّ كلَّ ما في الوجود آيةٌ من آيات الله الباهرة، ولكن بمرور الزَّمن هانتْ عند النَّاظرين، وغفل عنها الإنسان: «كلُّ ما في الوجود من المخلوقات كانتْ في ابتدائها آيات باهرات خارقات، ولكنَّها لـمَّا استمرَّتْ هانتْ على النَّاظرين، وغفلوا عن جلالتها، وما فيها من الدَّلالة على ربِّ العالمين»[٣].

وذكر في مكانٍ آخر قريبًا من هذا المعنى في سياق حديثه، وتفسيرِه عن المُكاشفة[٤]

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[٥].

وتفوحُ رائحةُ أصل التَّوحيد من جميع آثار السيِّد:«وأشهد أن لا إله إلَّا هو شهادة أشرقت بها سرائر العقل المكين، وأضاءتْ لها نواظرُ قلوب أهل اليقين»[٦].

«لا إله إلَّا الله شهادة صدرتْ عمَّا شرَّفني به من اليقين، وعرَّفني من الأسرار عن السَّلف الطَّاهرين»[٧].

(١) اللهوف على قتلى الطفوف: ١.
(٢) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٢.
(٣) فرج المهموم: ٢١٦.
(٤) لاحظ: فلاح السائل: ١٠٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.
(٦) التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين: ٥٢٩.
(٧) محاسبة النفس: ١٠.

إنَّ السـيِّد له علاقة خاصَّة بكتابَي: توحيد المفضَّل، والإهليلجة؛ فكان يوصي ابنَه بهـما[1]؛ بل أوصى للمسـافر أن يصحَبَ معه الكتابَين[2]، ويكتـب المرحوم النُّوريُّ عنِ السيِّد: «كان رحمه الله من عُظماء المُعظِّمين لشعائر الله تعالى، لا يذكر في أحدٍ من تصانيفه الاسم المُبارك إلَّا ويعقبُه بقوله: جلَّ جلالُه»[3].

نكمل ما نحن فيه من البحث.

٣-١-٢. الأصل الثاني: التَّوحيد في الأفعال

أهمُّ مفصل في مسألة التوحيد الأفعاليّ من منظار السيِّد المالكيَّة على الإطلاق، وهنا نشير إلى نُقطَتين مهمَّتينِ في فكر السيِّد ذات صلةٍ بالإنسان، وهما:

٣-١-٢-١. المالكيَّة شأنٌ من شؤون التَّوحيد

تعدُّ مسـألة المالكيَّة من مباحث التوحيد الأفعاليّ، وشأنًا من شؤون التَّوحيد، ومن العناصر الأساس في فكر السيِّد العرفانيَّة هي عقيدة المالكيَّة على الإطلاق، مع أنَّ السيِّد يشـير إلى توحيد الذَّات، والصِّفات، والأفعال، كما عليه متكلِّمو الشِّـيعة، ولكن السيِّد

(١) يقـول: «فانظـر في كتاب (نهج البلاغة) وما فيه مـن الأسرار، وانظر (كتاب المفضَّل بن عمر)، الَّذي أملاه عليه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله جلَّ جلاله من الآثار، وانظر كتاب الإهليلجة وما فيه من الاعتبار، فإنَّ الاعتناء بقول سابق الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم أفضل السَّلام موافق لفطرة العقول والأحلام». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٠ (م).

(٢) يقـول: «ويصحب معـه كتاب الإهليلجـة، وهو كتاب مناظـرة مولانا الصـادق عليه السلام للهنديّ في معرفـة الله جـلَّ جلاله بطرق غريبة عجيبـة ضروريَّة، حتَّى أقرَّ الهنـدي بالإلهيَّة والوحدانيَّة، ويصحـب معـه كتاب المفضَّـل بن عمر الـذي رواه عن الصـادق عليه السلام في معرفة وجـوه الحكمة في إنشـاء العالم السـفليّ، وإظهـار أسراره، فإنَّه عجيبٌ في معنـاه». الأمان من أخطار الأسـفار والأزمان: ٩١. (م).

(٣) مستدرك الوسائل ٣: ٣٦٧.

يقـدِّم المالكيَّـة على الإطلاق على جميع المسـائل، وهي مـن المباحث المهمَّـة في التوحيد الأفعاليّ، كما أنَّه يمكن عدُّهُ ركنًا من أركان سلوك السَّائل في عقيدة السيِّد، ويبني السيِّد هذه العقيدةَ على العقل، والنَّقل: «هذا الذي اقتضاهُ العقلُ، والنَّقل»(١).

وإذا اعتقد الفردُ بالمالكيَّة على الإطلاق؛ فلا يرى لنفسه مُلكًا؛ بل يرى نفسَه مملوكًا لغيره؛ فلا يرى له ملكًا، ولا مالًا، وإنَّما هو لله ﷻ، ولا يسبقون بطلبِ مالٍ من الله تعالى مفقود «ولا يسبقون الله جلَّ جلالُه بطلب مالٍ يريد أن يطلبوهُ من المفقود»(٢).

«ولكـنَّ العارفـين ما ينازعـون الله جلَّ جلالُـه في تملُّكٍ قليلٍ، ولا كثـير، ولكنَّهم كالـوكلاء، والأمنـاء، والعبيد الضُّعفـاء؛ فيصرفـون في الدُّنيا، وفيما يعطيهـم منها كما يصرفهم هو جلَّ جلالُه، وهم في الحقيقة زاهدون فيها، وخارجون عنها»(٣).

وعليه فالسيِّد يعتقد أنَّ العبدَ، وما ملكَ هو بالحقيقة ملكٌ لله ﷻ، ويعدُّ هذا المطلبُ من الخصائص البارزة لسيرته العمليَّة(٤).

وعليه؛ فهو يعتقد أنَّ المالكيَّة على الإطلاق لله ﷻ، والحقُّ تعالى المالكُ الحقيقيُّ لعالم الوجود، ويرى السيِّد أنَّ حقيقة التَّمليك «أنَّ الأملاك، وأنا، والأثمان كلُّنا ملكٌ لله جلَّ جلالُه، هذا الـذي اقتضاهُ العقلُ، والنَّقل، أنَّ العبد لا يملك مع مولاهُ؛ وإنَّما كلَّما ملَّكه شيئًا فهو مجازٌ، وحقيقة التَّملُّك لمن أنشأهُ، وأعطاهُ»(٥).

وممَّا ينبغي الإشارة إليه أنَّ مبحث المالكيَّة لهُ علاقةٌ بعالم الوجود، وبالخصوص بين الإنسـان والله ﷻ، ويمكن سـوق الحديث من جهتينِ: من جهـةِ الله ﷻ بوصفه مالكًا،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨١.
(٢) المصدر نفسه: ١٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ١٨٢.
(٤) لاحظ تفاصيل أكثر: المصدر نفسه: ١٤٢، ١٨٢.
(٥) المصدر نفسه: ١٨١.

والجهـة الثَّانية: العبد بوصفه مملوكًا، وينتمي هذا البحث في الفكر الشـيعيّ الإماميّ في مكانة الإنسـان، لا إلى مبحث ما هو الإنسـان؛ لأنَّ الفكر العرفانيّ للسيِّد أكثرُه يدور في فُلك نظام العرفان الشـيعيّ الإماميّ، مع أنَّ هذا النِّظام، وأصوله العرفانيَّة، ومعالمُه غيرُ مبيَّنـة، ولكـن تناول في مؤلَّفاته بنحوٍ واضحٍ جدًّا على سـبيل المثال: الله ﷻ، الإنسـان، المعرفة، و..

بعبارةٍ أُخرى: عقيدة المالكيَّة بنظر السَّـالكِ مرجعُهـا للكون، والرُّؤية الكونيَّة من المُحاسـبة، والمُراقبة للنَّفس، والتضرُّع، والدُّعـاء، والعبوديَّة، ومراعاة التَّكاليف؛ فكلُّ الوجودِ، وما فيه هو ملكٌ لله ﷻ.

٣-٢. المالكيَّة والإنسان

أ. الإنسان مُلكٌ لله ﷻ:

يرى السيِّد أنَّ مالكيَّة الله ﷻ ساريةٌ، وجاريةٌ في جميع الأشياءِ، وكلُّ الأشياء، ومنها الإنسـان، وكذا الماديَّة، والمعنويَّـة؛ فهي مُلكه، وبيدِه تعالى: «واعلـمْ أنَّك على التَّحقيقِ ملكُه، وما في يدكَ ملكُه، وهو أحقُّ بحفظِ ملكِه منك، ولكنَّه شـرَّفك بأن جعلَك أهلًا أن تودعَـه، وتجعله كالوكيـل لكَ، والنَّائب عنك، وبلَّغك بذلـك مقامًا جليلًا، كما قال لجدِّك، وسيِّدك رسوله صلوات الله، وسلامه عليه، وعلى آله فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا[1]»[2].

ويُفهـم ممَّا تقـدَّم حقيقة التملُّك مـن أنَّ العبد ليس له القُدرة على إنشـاء، وإعطاء الملـك، وإنَّما هذا من شـأن المالك الحقيقـيّ: «وتذكَّرْ أنَّه مـا كان في مقدورك أن تخلقهما [الغلام والجارية] ولا تخلق ما يحتاجان»[3].

(١) سورة المزمِّل، الآية: ٩.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٩.
(٣) المصدر نفسه: ١٥٥.

وتقع مالكيَّة الإنسان مع مالكيَّة الآخر في عرضٍ واحدٍ من حيثُ الحدود، والحُقوق، أمَّا مقابل مالكيَّة الله ﷻ؛ فلا تقع في عرضٍ، مُلكه، ولا طوله ﷻ؛ فالإنسان حقيقة لا شيء يذكر: «عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ»(١).

وما يملكُه العبد بالاعتبار أيضًا، هو في طولِ مُلكه تعالى، وهو ﷻ من مدَّه بهذا الاعتبار؛ فالسيِّد يعتقد أنَّه هو، وما يملكُ ملكٌ لله ﷻ: «أنَّ الأملاك، وأنا، والأثمان كلُّنا ملكٌ لله جلَّ جلالُه»(٢).

وعليه، فالعبدُ لا يملكُ في عرَضِ مولاه، ولا يشاركه مُلكه، وما يملكه العبدُ بالاعتبار؛ فالمولى يمنحه ذلك، وبنحو المجاز، والعارية: «أنَّ العبد لا يملك مع مولاه؛ وإنَّما كلَّما ملَّكه شيئًا فهو مجازٌ»(٣)، و«وسلَّم ملكَه إليه»(٤).

ويعتقد السيِّد أنّ هذا الجسد، وما يحتاج إليه هو ملكٌ لله ﷻ: «وقد عرفتَ أنّ هذا الجسدَ، وما يحتاج إليه ملكُ اللهّ جلّ جلاله، و بقاؤه لأجله، ولأجل التقرُّب بالخدمة إليه، وهو أمانة في يد عبدِه، ويحاسبه عليه إذا وقف بين يديه»(٥).

ب. المالكيَّة، والسلوك العلميّ:

تقدَّمَ: من اعتقادات السيِّد أنّ ثمّة علاقة بين السلوك العلميّ، ومسألة المالكيَّة على الإطلاق: «ألا ترى أنَّ كلَّ ملكٍ، وسلطان إذا بالغَ مع مملوكه في الإحسان أدخله حضرةَ وجودِه، وشرفه تارةً في الإذن لهُ في الخطاب، وتارةً بالجواب»(٦).

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ١٩٠.
(٥) المصدر نفسه: ١٩١.
(٦) فلاح السائل: ٦.

ونتيجة ما تقدَّم، فإنَّ الله ﷻ هو المالك الوحيد للدُّنيا، والآخرة، ولا شريكَ لهُ في مُلكه[1].

ويصفُ العُرفاءَ بأنَّهم: «ولكن العارفين ما ينازعون الله جلَّ جلالُه في تملُّك قليلٍ، ولا كثير، ولكنَّهم كالوكلاء، والأُمناء، والعبيد الضُّعفاء؛ فيصرفون في الدُّنيا، وفيما يعطيهم منها كما يصرفهم هو جلَّ جلالُه، وهم في الحقيقة زاهدون فيها، وخارجون عنها»[2].

ج. المالكيَّة والسلوك العمليّ:

يعدُّ السيِّد من العرفان العمليّ السير المراقبة، والمحاسبة، وما شابههما، في ظلِّ مُلك الله ﷻ، وهذه النُّكتة تدلُّ على أنَّ السُّلوك العمليّ في نظر السيِّد متَّصلٌ بالمالكيَّة المُطلقة، ويؤيِّد هذا الكلام ما ذكرهُ في جملةٍ من المواضع، وإليك إيَّاها:

العبوديَّة: عندما يتحدَّث السيِّد عن العبوديَّة، يقول: «الصَّلاة؛ فاعلمْ أنَّها تستدعي لك الحضور بين يدي مالكِ الأحياءِ، والأموات»[3].

إنَّ الاشتغال بغير المالك في ساحة العبوديَّة قبيحٌ[4]، بل يذكر السيِّد حتَّى العواطف، والأنس الإنسانيّ ملكُه ﷻ.

ومن جُملة الشَّواغل الأنس بالنَّاس، فهي تشغلُ عن مالك الدُّنيا، والآخرة[5].

(١) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ١٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ١٩٧
(٤) المصدر نفسه: ١٤٧-١٤٨.
(٥) المصدر نفسه.

المُراقبة: تحتلُّ المُراقبة عند السيِّد أهميَّةً خاصَّةً؛ فينبغي دركُ الحُضور في محضر مالك الدُّنيا، والآخرة: «لا يشغلنَّكَ المَلائكةُ الحافظون، ولا أحدٌ من بني آدم الحاضرون، الذين هم بعد وقتٍ قليلٍ ميِّتون عن مولاكَ، ومولاهم، ومالك دُنياك، وآخرتك، ودُنياهم، وآخرتهم»[1].

ويوصي ولدَهُ بالأدب مع ملكِ الملوك: «فأريدُ.. تتأدَّب في المشي تأدُّبَ المَاشي بحضرة ملكِ المُلوك إليه، الذي لا غناءَ عنه»[2].

المُحاسبة: يتحدَّث السيِّد عن آداب السُّلوك العمليّ، والمُحاسبة: «فاجلسْ في فراش منامِك بالأدب بين يدَي مالك وجودِك، وحياتك، وعافيتك، وجلوسك، وقيامك»[3].

الجِهادُ: لم يشترِكِ السيِّد في الجِهاد، وكان متوقِّفًا في هذه الوظيفة الشرعيَّة، والاجتماعيَّة، ويعدُّ الرُّوحَ، والعقلَ، والجِسمَ لمالكِها، وواهبها؛ فلا تعزُّ أمامه ﷻ، وبتعبيرِه: النُّفوسُ، والوُجود، والرُّؤوس[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ١٧٩.
(٤) يقول: «أمَّا الجهاد يا ولدي، شرَّفك الله جلَّ جلاله بمجاهدة نفسك، وكل من يشغلك عنه، بل قواك قوة تدفع عنك مشقَّة الاجتهاد حتَّى تتلذَّذ بكلِّ مبذول في القرب منه، فاعلم أنَّك إن وجب عليك الجهاد بين يدي من تجب طاعته عليك، فهو صلوات الله عليه يعرِّفك وظائف الجهاد، ويكفيك ويكفيني أن أكتب ما عرَّفني الله جلَّ جلاله من ذلك إليك.
وإن ابتُليت بجهادٍ مع غير من تجب طاعته؛ فإن كان فرضًا عامًّا يُخاف على الاسلام أن تذهب بيضته وتُستأصل شأفته، فإنَّك تعلم أنَّ النفوس والرؤوس، وكلُّ ما يعزُّ عليك من الله جلَّ جلاله إليك، فأحقُّ ممَّا يذلّ كلّ عزيز، والدنيا كلُّها لواهبها، وأجمل ما أنفقت ذخائر العقول في مراد جالبها، ومَن أحقُّ بالأجساد والأرواح والعقول بكلِّ ما في الوجود من الله جلَّ جلاله،=

الفقـر: يعتقـدُ السـيِّد أنَّ الله ﷻ مالـكٌ في جميـع الأحـوالِ، والصُّـور؛ فعندمـا يملـك الإنسـان؛ فليـس معنى هـذا خروجه عـن ملكِـه، وسُـلطانِه، نعـم، إذا ملك الإنسـانُ ففي عـرَضِ الله ﷻ؛ فيعدُّ هذا شريـكًا لهُ، وإذا كان مالكًا بالاسـتقلال؛ فهذا لا ينسـجم مع الفقرِ، ويلزم منه الاسـتقلال بالذَّات، ومعنى هـذا يكون واجبًا بالذَّات حينئـذٍ[1]؛ فلا مفرَّ من الاعتراف بالفقـر الذَّاتيّ، والإقرار بالغَناء الـذاتيّ، والمالكيَّة على الإطلاق لله ﷻ.

ويعتقـد أنَّه ليـس هناك مالكٌ، وغنـيٌّ بالذَّات غـير الله ﷻ، وكلُّ العـالم بمُقتضى حقيقتـه، وماهيَّته؛ فهو فقيرٌ ذاتًا: «فإنَّك تعلم أنَّك، وأباك، وكلُّ من خرج إلى الدُّنيا من الخلائـق كانوا فقراءَ، وجرى عليهم حكـمُ الفقرِ المُدقع على مُقتضى الحقائق، وإنَّما تقدَّم غناء قومٍ منهم، وتأخَّر الغناء عن الآخرين، كلُّهم في كلِّ حال فقراء إلى الله جلَّ جلالُه، ومسـاكين، ما شركـه أحدٌ منهم في خلـق الأرض، ولا خلق المَعادن التـي فيها، ولا في الأموال، وتدبير حامليها، وجالبيها»[2].

ويذكر أنَّ الإنسـان في حاجة مسـتمرَّة لله ﷻ: «عليه أن يعرف أنَّه عبدٌ مملوكٌ لمالكٍ قـادرٍ قاهـرٍ مطَّلعٍ عليه، وأنَّ هذا العبدَ لا غنى له عن سـيِّدِه، ولا يخلـو أبدًا من الحاجة إليه»[3].

=الـذي أنـت وما في يدك صـادر عن ذلك الجود. فمتى دعـاك إليه، فإيَّـاك أن تتوقَّف عن حمل نفسـك ومالـك إليه، فإنَّـك إن بخلت بهـا عليه في بذلها، سـلبها عزرائيـل عليه السلام أو غيره، وضاع منـك شرف الخدمة بتسـليمها إليه وبذلها في إعـزاز دينه الذي يعزُّ عليه». كشـف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١. (م).

(١) وهذا خلاف كونه ممكنًا، كما ثبت في محلِّه من الأبحاث الفلسفيَّة. (م).

(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٨.

(٣) فلاح السائل: ٣١.

ويعلِّق بعد ما يورد من دعاء تعقيب العصر على كلمة فقير: «ليكنْ صورة مسألتك صورةَ عبدٍ فقيرٍ لمولًى غنيٍّ كبيرٍ»[1].

وكذا: «وفقيرًا إلى دوام رحمته»[2].

ويشير أنَّه ينبغي الاعتقاد بأنَّ المنَّة، والفضل من الله ﷻ في كلِّ شيءٍ «اعتقد المنَّة لله ربِّ العالمين، كيف أكرمك، وسلَّم ما لهُ إليك، كيف رضيك مستودعًا، وكيف جعلك أهلًا أن يبعثَ رسوله ﷺ إليك»[3].

وكذا يعتقد أنَّ هذا الجسم أمانةٌ من الله ﷻ، وعليه ينبغي اللجوء لله ﷻ أوَّلًا، وإذا لا بدَّ منه فمع الاستخارة، ومشاورة الله ﷻ: «فاعتمدْ في طبِّ الأبدان على العالم بباطن ما يتجدَّد فيها من النُّقصان، قبل أن تظهر أمراضُها إلى الأطبَّاء، وفوِّضْ إليه، وتوكَّلْ عليه، وسلِّمْ مُلكَه إليه، تجدْه طبيبًا للأدواء، والأسقام، مغنيًا لك عن طبيب الأنام، واستعملْ في زوال الأمراض ما رويناه عن التُّربة الشَّريفة، والدَّعوات المُنيفة، والعُوذ المُعتبرة عن العترة المطهَّرة.

وإنِ احتجتَ إلى معالجة الأطبَّاء، فاعملْ فيما يصفونهُ لك من أسباب الشِّفاء على الاستخارة، والمُشاورة لله جلَّ جلالُه، كما شرحناه في كتاب (فتح الأبواب)؛ فإنَّه جلَّ جلالُه يعلم مقدار المَرض، ومقدار ما يحتاج إليه من دواءٍ مُفترض، وكم تكون مدَّة الدواء.

وأمَّا الطَّبيب من البشر فإنَّه يعلم ما ظهر، ولا يعلم ما اختفى منه، ولا مقدار المرض، ومقدار ما يحتاج إليه على صفة لا يكون فيها زيادة، ولا نقيصة عنه، ولا يعرف

(١) فلاح السائل: ٢٠١.
(٢) التحصين لأسرار ما زاد على كتاب اليقين: ٥٣٠.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩.

كـم يبقى المـرض من الزَّمان؛ وإنَّما يداوي بمقدار غلبة ظنِّـه، وكم قتل بغلط ظنونه من إنسـان؛ فقد رأينا من سقاه من شربات؛ فكان الذي سقاهُ أكثر ممَّا يحتاج إليه في العادات فمات، ومن اشتبه عليه وجه أسقامه؛ فهلك بالمعاني، وكانتْ سبب طول آلامه.

وقد عرفتَ أنَّ هذا الجسـد، وما يحتـاج إليه ملك الله جلَّ جلالُـه، وبقاؤهُ لأجلِه، ولأجـلِ التقرُّب بالخدمة إليه، وهو أمانةٌ في يد عبدِه، ويحاسـبه عليه إذا وقف بين يديه؛ فإذا اسـتأذنهُ في وقتِ استعمال الدَّواء، ومقداره، وكيفيَّة العلاج لتحصيل الشِّفاء، كنتَ قد أمنتَ من المُخاطرة بإتلاف مُهجتك»[1].

يبدو أنّ السيِّد ينطلقُ في ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2].

٣-١-٢-٢. الرُّبوبيَّة

تعـدُّ الربوبيَّـة شـأنًا من شـؤون التوحيـد الأفعاليّ؛ فهـو ﷻ، وفعله واحـد، وأنَّ الاختيار تحت تصرُّف المالك على الإطلاق، ونفهم الرُّبوبيَّة لله ﷻ من الكمال، والقُدرة، والتسـلُّط، والنُّفـوذ، والتـصرُّف في العالم، وهـو الوحيد لـه الخلق، وهـو التَّوحيدُ في الخالقيَّـة، وكـذا له التَّدبير في العالم، وهو ما يعبَّر عنه بالتَّوحيد في الربوبيَّة؛ فلا مسـاعدَ لـهُ، ولا شريـكَ، ولم يقسِّـم ذلـك بينَهُ، وبـين خلقِه سـبحانَه الله تعالى عـن ذلك علوًّا كبيرًا.

فمـن عناصر الإيمان الإيـمانُ بربوبيَّته تعالى، وكمال الإنسـان في ذلـك، وهذا مهمٌّ جـدًّا، بأن يعتقدَ الإنسـانُ أن ليس هناك ربٌّ غيره، ومعنى هـذا أن لا مدبِّرَ للعالم غيره تعالى.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٠.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٠.

وممَّا تقتضيه الربوبيَّة، وتتكفَّل به، هو تربية كلِّ الوجود، ومظاهره، وتجلِّي ربوبيَّته ﷻ كثيرة لا تُحصى منها: الإنسان، الطَّبيعة، السَّماء، الأرض، الغابة، الرُّوح، الجسم، و..

إنَّ إرسال الرُّسُل، وبعث الأنبياء (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السلام)، والقيامة، ويوم الجزاء شأنٌ من شؤون ربوبيَّته ﷻ.

إنَّ ما يقوم به الأنبياء، والأوصياء (صلى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السلام) من هداية البشر؛ فهو من شُؤون تلك الربوبيَّة: «في حفظ تأويل كتاب ربِّه، وحفظ شريعته، وحفظ ما يحتاج الإسلام إلى حفظ مقالِه، وفِعالِه»[1].

ويعتقد السيِّد تدبير أمورِه، وآماله بيدِه ﷻ: «في تدبير آمالي»[2]، ويعتقد السيِّد أنَّ الله ﷻ هو من يُسلكُه سبيل السَّعادة في الدُّنيا، والآخرة: «وتسليكه ﷻ لي سبيل سعادات الدُّنيا، والمَعاد»[3].

وسجَّل السيِّد أنَّ تمام ما مرَّ به من مراحل من التَّكامُل، والرُّشد، والهِداية، والسَّعادة هي من تدبير الله ﷻ.

وتمثِّل مسألةُ الربوبيَّة عند السيِّد أهميَّة مميَّزة، وهذا واضحٌ من آثاره[4].

ويشيرُ إلى تدبير الله ﷻ في إدراك الإنسان: «قد عرفت محقِّقًا قبل بلوغك، وبعد بلوغك، أنَّك عالمٌ ببديهيَّات، وعالمٌ بكلِّيَّات، وجزئيَّات ما سعيتَ في تحصيلِها، ولا عرفتَ كيف كان تدبير الله جلَّ جلالُه في وصولها إلى عقلِك، وقلبك، وحلولها،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤١-١٤٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢١٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٩٤.
(٤) لاحظ: التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين: ٥٣٢.

ولا ساعة ورودِها على سرائرك، ولا بأيِّ الطَّريق سلك الله جلَّ جلالُه بها إلى ضمائرِك..»[1].

إنَّ المعرفة الفطريَّة من منظار السيِّد مظهرٌ من مظاهر الرُّبوبيَّة[2].

ويعتقد أنَّ الإنسان إذا ما تذكَّر تدبير الله ﷻ، لم يحتجْ إلى أحدٍ، ولم يشاركْه أحدٌ في ذلك «فلا تؤثرنَّ أحدًا عليه؛ فاحفظْه، والزمِ التقرُّب إليه، والذُّلَّ بين يديه»[3].

ويذكر موضوعًا بعُنوان: (فيما نذكره ممَّا يُقرأ ويُعمل من آداب السَّحور)، يشير فيه إلى إرادة الله ﷻ، وتدبيره: «وأمَّا آداب السَّحور فمنها أن يكون لك حالٌ مع الله جلَّ جلالُه تعرف بها أنَّه يريد أنَّك تتسحَّر، وبماذا تتسحَّر، ومقدار ما تتسحَّر به؛ فذلك يكون من أعظم سعادتِك، حيث نقلَك الله جلَّ جلالُه برحمتِه من معاملة شهوتِك، وطبيعتِك إلى تدبيره جلَّ جلالُه في إرادتك، ومنها أن لا يكون لك معرفةٌ بهذه الحال، ولا تصدِّقْ بها حتَّى تطلبَها من باب الكرم، والإفضال؛ فلا تتسحَّر سحورًا يُثقلُك عن تمام وظائف الأسحار، وعن لطائف الطَّاعات في إقبال النَّهار»[4].

تقدَّم في ما سبقَ أنَّه يعتقد أنَّ ثمَّة تناسبًا مع المُكاشفة، والرُّبوبيَّة: «المنزَّهة عن كلِّ ما لا يليق بكمال ربوبيَّته»[5]، أو: «أنا جليسُ ربِّي»[6]؛ فالسيِّد عند الدُّعاء، والمُناجاة، ومقام المُكاشفة نحو سُنخ ارتباطٍ بربوبيَّته تعالى، وفي بيان ذلك ينقل عن بعض

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٨-٥٩.
(٢) راجع: جمال الأسبوع: ٤-٦.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٦.
(٤) إقبال الأعمال: ١/ ٨٣.
(٥) فلاح السائل: ٦.
(٦) المصدر نفسه.

العُرفـاء «إِنْ أَحْبَبْـتُ أَنْ يُحَدِّثَنِي تَلَوْتُ كِتَابَـهُ، وإِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَـهُ دَعَوْتُهُ، وَكَرَّرْتُ خِطَابَهُ»[1].

وأيضًا تقدَّمَ أنَّه يعدُّ المُكاشفة من المراحم، والمكارم الربَّانيَّة، كما نرى جُوده تعالى في جميع مراحل خلقِنا، وكيف أنَّه عليه السلام هدانا لمعرفتِه: «هداني إلى معرفته»[2]، و«عرَّفني مُرادَه جلَّ جلالُه منِّي»[3]، ومُراد السـيِّد من هذه المعرفة، كما تقدَّم سـابقًا أيضًا: «وتيقَّنتُ أنَّ تدبيرَهُ لي خيرٌ من تدبيري لنفسي، وهذا واضحٌ عند أهل العقولِ، والقُلوب»[4]، ونعرف أنَّ أعمال الإنسان تسجِّلُها المَلائكةُ، والسَّلام عليها في وقتَي الصُّبح، والغُروب[5]، وهنا أمران:

أ. المعرفة التعبُّديَّة «بمُقتضى المنقول من الروايات»[6].

ب. المعرفة الشُّهوديَّة: «من طريق المراحم الربَّانيَّات»[7].

من الواضح أنَّ هذه المسألة مرتبطةٌ بمسألة ربوبيَّته عليه السلام «من طريق المراحم الربَّانيَّة».

وتقدَّم أيضًا أنَّه يعرف كلَّ بداية شـهرٍ، ومنشـأ هذا المعرفة العناية الربَّانيَّة: «واعلمْ أنَّ الله جلَّ جلالُه تفضَّل علينا بأسرارٍ ربَّانيَّة، وأنوارٍ محمَّديَّة، ومبارَّ علويَّة، منها تعريفنا بأوائل الشُّهور»[8].

(١) فلاح السائل: ٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ٢٢٧.
(٥) لاحظ: المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) إقبال الأعمال: ١/ ١٥.

يعتقد السيِّد مع أنَّ الله ﷻ غيرُ مُحتاجٍ لخلق الإنسان، وليس أهلًا للمُخاطبة الإلهيَّة، ولكن تفضَّل عليهم بإرسال الكتبِ، والرُّسل لهم: «ثمَّ جعلَك الله جلَّ جلاله يا ولدي محمَّد، وسائر المكلَّفين أهلًا أن يكتب إليكم كتابًا من مقدَّس جلالتِه، وعظيم ربوبيَّته مع غنائه لذاته عن خليقتِه، وأن يبعثَ رسلًا من نوَّابه، وأنبيائه، وخاصَّته، ولم يكن بنو آدم في مقام أن يبلغ حالهم إلى هذا المقام من كرامة؛ ثمَّ بلغ الأمر بين الله جلَّ جلاله القادر، القاهر، مالك الأوائل، والأواخر، وبين بني آدم الضُّعفاء، والأذلَّاء الأصاغر، الذين انتظم حال وجودِهم من ترابٍ، وروحٍ كالهواء، إلى أن يُنيلَهم الدُّنيا قبل معرفتهم به، وخدمتهم له، وفيها ما هم إليه محتاجون، وما أتعبهم في بنائها، وإنشائها، ولا كانوا ممَّن يقدرون؛ فلا يعترفون، ولا يشكرون، حتَّى كأنَّهم البانون لها، والفاطرون»[1].

وفي هذا السياق، إنَّ المُشاركة في الربوبيَّة تعدُّ شركًا في عُرف القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

٤. معرفة الإنسان (النوَّاب الكاملون)

يمكن عدُّ (النوَّاب الكاملين) من المَسائل المهمَّة في العِرفان العلميّ من مِنظار السيِّد؛ فهؤلاء الكاملون يكونون واسطةً بينهم، وبين الله ﷻ، وبالاصطلاح المنحوت (النوَّاب الكُمَّل)، ويُطلق عليهم السيِّد: «نوَّابه الكاملين»[3]، منطلقًا في ذلك من الكتاب والسنَّة: «إنَّ اختلاف طبائع العباد لا يستغني أبدًا عن نائب له بينهم في البلاد، يوقظهم

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٢.

من وبيل الرقاد، ويسلك بهم سبيلَ الرشاد، تصديقًا لقوله جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١]»[٢].

«ومن وظائف يوم الخميس أنَّه يوم عرْض أعمال العباد على سُلطان المعاد، وعرضها على خاصَّته، ونوَّابه في البلاد كما قدَّمناه في يوم الاثنين؛ فاعملْ كما ذكرناهُ هناك عملًا تقرُّ به العين»[٣].

ويمكنُ مُلاحظة رأيه في هذا السِّياق عبر نظرتَينِ: نظرة كلِّيَّة، وعامَّة، ونظرة جزئيَّة، وخاصَّة.

٤-١. النَّظرة الكلِّيَّة العامَّة

تقدَّم أنَّ السيِّد يعتقد أنَّ طريق الأنبياء (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السلام) للأُمم السابقة مطابقٌ لما جاء في الكتب السماويَّة، وبعبارة أُخرى: يعدُّ السيِّد الأنبياء في الأديان السماويَّة هم النوَّاب الكاملين، والواسطةَ لمعرفة الله ﷻ[٤].

ويرى أنَّ العقول بذاتِها لا يمكنُها كشف تفاصيل مُراد الله ﷻ؛ فلا بدَّ من واسطةٍ، وهم رسلُه: «إنَّ العقولَ ما تقوم بذاتها بكشف مُراد الله جلَّ جلالُه منها على التَّفصيل، وبأنَّها لا بدَّ لها من واسطةٍ بين الله جلَّ جلالُه، وبينَها، يدلُّها إلى مراده جلَّ جلالُه في كلِّ ما يحتاج إلى معرفتِه به من كثيرٍ، وقليل، أ فلا ترى أنَّ العقول كانتْ مع أصحابها قبل إرسال الله جلَّ جلالُه جدَّك محمَّدًا صلوات الله عليه إليهم، كانوا عاكفينَ على عبادة

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٨٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٨٢.
(٤) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٩.

الأصنام، والأحجار، والأخشاب، يضحكُ الشّيطانُ بها عليهم»[١].

ويعُـدُّ هذه المسـألةَ من البديهيَّـات: «وأنت تعلم يا ولدي محمَّد من نفسـك، ومن غيرِك»[٢].

ويعتقـد أنَّ الإنسـان، وعقلَـهُ مـن دون النـوَّاب الكاملـين أسـوءُ من الـدَّوابِّ: «وبلغـوا إلى أخـسِّ، وأدبر مـن الـدَّوابِّ؛ لأنَّ الدَّابَّة لـو تُركَتْ بغير سـائق، ولا قائد ما مشت إلَّا إلى ما تعتقد فيه نفعًا بسببٍ من الأسباب»[٣].

ثـمَّ يقـول: «والذين عبـدوا الأصنام ما كانـتْ نافعةً لهم، ولا دافعـةً عنهم، وهي مُساويةٌ لسائر الأحجار، والأخشاب»[٤].

إنَّ وظيفة الواسطة، وهم النوَّابُ الكاملون، من مِنظار السيِّد، بيانٌ وكشفٌ للمُراد، والآداب الإلهيَّة للعباد: «الكاشفين لك عن مُرادِه، وآدابِه»[٥].

ولا يخفـى أنَّ هنـاك وظائفَ أُخـر في نظر الإسـلام، مثل: حفظ تأويـل الكتاب، والشَّـريعة[٦].

«لـولا حُججُ الله جلَّ جلالُه على العباد، ما خلق الله جلَّ جلالُه أرضًا، ولا سـماءً، ولا أحدًا في البلاد، ولا نارًا، ولا جنَّةً للمَعاد، ولا شيئًا من النَّعيم، والإرفاد؛ فهل ترى أعمالَك جميعَها إلَّا في ميزان مآبهم، وفي ديار رضوانِ ثوابِهم؟»[٧].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٩.
(٢) المصدر نفسه: ٧٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ١٤١.
(٦) المصدر نفسه: ٤١-٤٢.
(٧) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢١.

وجاء في شعر السيِّد الخمينيّ:

السَّاقي يعطي الشَّرابَ لنا بيد المَعشوقِ

خذِ الشَّراب أنت أيضًا من يد المَعشوقِ[1].

وتقدَّم أنَّ عقيدة السيِّد: «وجد العارفون على مائدة ضيافة رسالته تصديقَه بإجابة الدَّعوات»[2].

وفي موضع آخر يقول:

«أقول: ولا تهون بهذه الآداب، وأمثالها من أسباب الصَّواب؛ فإنَّها شفاءُ أسقام دُنياك، ودينك، وزيادة في يقينك، وأنت تعرف من نفسك أن لو قال لك جالينوس، أو مثله من الأطبَّاء استعمل كذا، وكذا؛ ففيه شفاءٌ لك من بعض الأدواء في دار الفناء، سارعتَ إلى القبول منه؛ ولعلَّك تلوم من يترك التَّداوي بقولِ جالينوس، وتُعرض عنه، فلأيِّ حالٍ قول الله تعالى على لسان محمَّدﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[3]، وإبلاغ محمّدﷺ، وإبلاغ الخواصِّ من عِترته، وأطبَّاء القلوب، ونوَّاب علَّامة الغيوب أهون عندك من قول طبيب تعتقد فيه أنَّه عدوٌّ لله جلَّ جلالُه، ومخذول من جانب الله جلَّ جلالُه، وأقواله، وأفعاله منقطعة عن إقبال الله جلَّ جلالُه عليه لكفرِه، وسُقم دينِه، وعقله، وسرِّه؛ بل ينبغي أن يكون أمر الله جلَّ جلالُه عندك أهمُّ من أمرِه، وإلَّا فأنت سقيمُ الدِّين، دميمُ اليقين»[4].

(١) ديوان السيِّد الخمينيّ: ٦٥، وهو باللغة الفارسيَّة (م).
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٨٠.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.
(٤) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٦٤.

٤-٢. النَّظرة الجزئيَّة الخاصَّة

٤-٢-١. الأئمَّة الأطهار عليهم السلام

عدَّ السيِّدُ في النَّظر الخاصِّ، وفي العهد الإسلاميّ، النوَّابَ هم الأئمَّة الأطهار عليهم السلام، ويكتب السيِّد عن علم الأئمَّة عليهم السلام، وأنَّهم آيات الله عزَّ وجلَّ: «إنَّ علوم أئمَّتك صلوات الله عليهم كانتْ آية لله جلَّ جلالُه فيهم، ومعجزة دالَّة على إمامتهم؛ لأنَّهم لم يُعرَف لهم أستاذٌ يتردَّدون إليه، ولا يشتغلون عليه، ولا رآهم شيعتهم، ولا أعداؤهم أنَّهم يقرؤون تلك العلومَ على آبائهم على عادة المتعلِّمين، ولا على صفات المدرِّسين، ولا عُرِفَ لهم كتاب مصنَّفٌ اشتغلوا فيه، ولا تأليفًا دروا حفظ معانيه، ولم يُعرَف عنهم إلَّا إذا مات الحيُّ منهم، قام الباقي بعده من وِلده الذي أوصى إليه بالإمامة، مقامه في علمه، وكلُّ ما يحتاج إليه من الخصائص، والكرامة»[١].

وفي موضع آخر يقول: «إنَّ علمَهم عليهم السلام من غير أستاذٍ معلومٌ، وسبقهم إلى العلوم، وفضَّلهم في المعقول، والمَنقول، والمَرسوم»[٢].

وأشار في ذيل عنوان الفتوح الإلهيَّة إلى الآية الكريمة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[٣].

يقول: «واطلبْ ذلك ممَّن قال جلَّ جلالُه»[٤].

نشير في هذا القسم من البحث إلى جملةٍ من النَّماذج للرَّسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام بوصفهم النوَّاب الكمَّل.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٩٠.
(٢) إقبال الأعمال: ٣/ ١٢١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٤.

أ. الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

يعتقد السيِّد أنَّ الرَّسول الأكرم محمَّدًا صلى الله عليه وآله أعظم الخلق على الإطلاق: «أعظم الخلائق عند ربِّ العالمين»(١).

ويقول في موضع آخر في وصفه صلى الله عليه وآله: «أقدم قدمًا على تناول طرف جلالها، وأعظم همًا في تكامل شرف تحف كمالها، وأتمّ شِيمًا في لبس خلع جلبابها، وأبسط يدًا، وقلمًا، وأصدق لهجةً، وفهمًا في فتح مُستغلق أبوابها»(٢).

ويعتقد أنَّ النبيَّ الاعظم صلى الله عليه وآله: «أشرف الخواصِّ، وأعرف من خلع عليه جلَّ جلالُه خلعةَ الاختصاص، صلَّى الله عليه وعلى آله أفضل صلوات تبلغ به وبهم أكمل نهايات الغاياتِ»(٣).

وأنَّ النبيَّ الأعظم صلى الله عليه وآله لم يسبقه أحدٌ إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ: «أسبق أهل الأكوان، والأزمان إلى معرفة فاطر المكان، والإمكان»(٤).

ويقول في موضعٍ آخر: «عرفنا أنَّ نبيَّنا محمَّدًا صلى الله عليه وآله كان في ذاته، وصفاتِه على غاية تامَّة من الدَّلالة على صدق نبوَّته، وأنَّ الله تعالى زاده تصديقًا بالمُعجزات الشَّاهدة بثبوت رسالته»(٥).

وأيضًا: «إنَّ جدِّي محمَّدًا صلى الله عليه وآله أعظم واعٍ لمراده، ومقصوده، وأكمل داعٍ إلى الوقوف عند حدوده الذي أغناه عند المخصوصين بلُطفه جلَّ جلالُه، وعناياته عن النَّظر في

(١) إقبال الأعمال: ٦١٥.
(٢) المصدر نفسه: ٨.
(٣) فلاح السائل: ٣.
(٤) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣.
(٥) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ١/ ١٠.

براهينه صلوات الله عليه الباهرة، وآياته بما أفرده عليه السلام عن العالمينَ من كمال ذاتِه، وجلال صفاتِه»[1].

وأيضًا: «تفضَّل الله جلَّ جلالُه عليهم بجدِّك محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وآله؛ فأيقظ العقولَ من رقدتِها، وكشف عنها غطاءَ جهالتِها؛ فأبصرت ما كان مستورًا عنها، ووجدت ما كانت عمياء عنه؛ فهو أقربُ قريبٍ منها»[2].

وعدَّ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ الأعظم صلى الله عليه وآله كافٍ في الدَّلالة على صحَّة رسالتِه صلى الله عليه وآله: «فعلَّمهم آدابَ الدُّنيا، والآخرة، وفتح لهم كنوزَ العلوم الباهرة؛ فصنَّفوا الكتبَ في عجائبِ الألباب الَّتي كانت دارسةً، وأوضحوا عن طرق الآداب التي كانت طامسة، وكفى بذلك دلالاتٍ ضروريَّاتٍ على وجوب رسالته، وصحَّتها، وثبوت ما اشتملت عليه من الآيات»[3].

ويكتب عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «واعلمْ يا ولدي محمَّد نوَّر الله جلَّ جلالُه سرائرَك، وطهَّر بصائرَك، أنَّ معرفة جدِّك محمَّد سيِّد المُرسلين، وتصديقه بما جاء به من ربِّ العالمين، ما تحتاج الآن فيها من الدَّلالة إلى ما كان يحتاج النَّاسُ إليه أوَّلًا عند أوَّل الرِّسالة؛ لأنَّ أنوار رسالته، وآثار نبوَّته، وهدايته في هذه الستمائة سنة قد امتلأت بها أقطار كثيرة من البلاد، وتواتر بجملة معجزاته، وآياته ما لا تحصيه قوَّة العباد، وصار تصديقه صلوات الله عليه، وآله واضحًا كإشراق شمس النَّهار، وأعظم منها عند ذوي البصائر، والأبصار؛ لأنَّ الشَّمس مستورةٌ بالليل، وبالسَّحاب، وبغيرها من الأسباب،

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١١٠.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٨٠.
(٣) المصدر نفسه.

ونـور آيات الله جـلَّ جلالُه في جدِّك محمَّدﷺ الدَّاعية إليـه، ضياؤها مشرقٌ مع إشراق الألباب، وباقٍ مع بقاء مالك يوم الحِساب»[1].

وأيضًا: «وأشهد أنَّ جدِّي محمَّدًا صلوات الله عليه وآله، الذي سقاه منها بكاسات المحبَّة له، والعناية به، حتَّى يصل بها على الأوَّلين، والآخِرين، وأجلسه بشرف محلّها على أرائك ممالك نهايات مسالك الدُّنيا، والدِّين، وخلعَ عليه خُلعَ السَّبق للعالمين، ورتَّبه في أعـلى مراتب المخلصين، وحماه، ووقاه أن تقـدَّم على كماله نقضٍ، أو نقصٍ، أو وهنٍ، أو وهمٍ ينقلُه، ويذهلُه عن أسمى، وأسنى درجات السَّابقين»[2].

ب. أهل البيت عليهم السلام:

يعتقد السـيِّد أنَّ العِترة الطَّاهرةعليهم السلام لطفٌ، وحافظـون للأمانة الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة، وعلَّة بقاء الدُّنيا: «وإنَّما قُلنا تقدَّم حوائج الصفوة من العترة النبويَّة؛ لأنَّ بقاء الدنيا، وأهلها بمن يكون لطفًا، وقطبًا، وحافظًا للأمانات الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة؛ فإذا كنت محفوظًا بواحدٍ على مُقتضى اعتقادك، فكيف تقدِّم حوائجك على حوائجِه؛ بل يجب أن تقدِّم حوائجَه على حوائجكَ، ومُراده على مرادِك»[3].

وذكر أنَّ خدمة النوَّاب مشروطٌ بمعرفتِهم (سلام الله عليهم)، والالتزام بالشريعة الغرَّاء: «إنَّ فضل الخدمة لبوَّاب سـلطان الحساب على قدر منازلهم من جلالِه، وإقبالِه، وشـهِدَ لسـان الحقِّ، والصِّدق أنَّ محمَّدًا رسـولُ الله، والخواصُّ من آلـه في المقام الذي شـهد لهُم به مقدَّسُ بيـان مقالِه؛ فإذا عرفـتَ الله جلَّ جلالُه، وعرفتهـم على التَّحقيق، ولزِمـتَ مـا توجبه معرفـةُ الله جلَّ جلالُـه، ومعرفتهم من جميل الطَّريـق عرفتَ فضل

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٩.
(٢) التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين: ٥٢٩.
(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٢٩.

الصَّلاة عليهم، والخِدمة لهم، وإهداء الخير إليهم على سبيل الجُملة، والوجهِ الجَميل»[1].

لا شكَّ في أنَّ من أقصر طرائق المعرفة التفصيليَّة لله ﷻ عن طريق معرفة النوَّاب الكمَّل، بعبارة أُخرى: إنَّ المعرفة التفصيليَّة للحقِّ تعالى ممكنةٌ عن طريق معرفة الواسطة، ويقول السيِّد في هذا السِّياق: «وأشهد أنَّ نوَّابَهُ في مثل هذه المراتب التي يقصر عن وصفها منطقُ العُلماء الرَّاسخين، يجب أن يكونوا ممَّن سقي من تلك الكاسات شرابًا طهورًا، ووقاهُم من يوم كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، وشهد لهم حيثُ كُلِّفوا، وشُرِّفوا بأن قال جلَّ جلالُه: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2]»[3].

ويعتقد السيِّد أنَّ الطَّريق لمعرفة الأئمَّة عليهم السلام أسهل ممَّا يتوهَّمه كثيرٌ من النَّاس: «إنَّ الطَّريق إلى معرفتهم أسهلُ ممَّا يتوهَّمه كثيرٌ من الخلائق»[4].

ويكتب في هذا المجال أنَّ من المسائل التي تعدُّ من الضَّروريَّات العقليَّة أنَّ الله ﷻ يجعل في كلِّ زمانٍ نوابًا لهداية النَّاس: «إنَّ العقول قاضيةٌ أنَّ كمال رحمة الله جلَّ جلالُه بعباده، تقتضي أن يكون لهم في كلِّ زمانٍ، وأوانٍ من يدلُّهم على مرادِه دلالةً تُغني عن التَّأويل، وعن الاختلاف، وتصون عن التَّضليل»[5].

ج. أمير المؤمنين الوصي عليّ عليه السلام:

نأخذ من كلام السيِّد نموذجًا من الأئمَّة عليهم السلام، وهو الإمام عليّ عليه السلام، وننقل

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٣٤.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٢.
(٣) التحصين لأسرار ما زاد من كتاب اليقين: ٥٢٩.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٨٥.
(٥) المصدر نفسه.

هنـا ما قالهُ السـيِّد في خصـوص وليِّ الله الأعظم صلى الله عليه وآله، يصف السـيِّدُ الأمـيرَ: «الواهب الأعظم»[1].

وأيضًا: «أكمل الوصيِّينَ، وإمام المتَّقين، والكاشـف بـالإذن المقدَّس المكين أسرار ربِّ العالمين»[2].

وأيضًـا: «ومن عجائب هذا القول أنَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان مع علمه بتفصيل الأحوال، يسـير في النَّاس بالمقال، والفعال، سـيرة لا يعتقد من يـراه أنَّه عارفٌ ببواطن تلـك الأعـمال، والأفعال، والأقوال، وقد عرف العقـلاءُ أنَّ كلَّ من عرفَ، واطَّلع على مـا يتجدَّد من حركة من حركات نفسـه، أو حركات من يصحبـه، أو يطَّلع على أسرار النَّـاس؛ فإنَّـه يظهر على وجهه، وفعلـه أثر علمه بذلك قبل سـماعه من غيره، وعليّ عليه السلام مـع علمِه بذلك، يكـون كمن لا يعلم، وما هذا إلَّا من الآيـات الباهراتِ، والجمع بين المشكلات»[3].

وأيضًـا: «أفـلا ترى علمَه بالأحوال، وكـمال جوابِه عند السـؤال، وقوله لو عمل الله في خلقه بعلمِه، ما احتجَّ عليهم بالرُّسُـل[4]، ولم يقُلْ لو عملتُ أنا بعلمِي يريد أنَّني أتصـرَّف في نفسي، وغيري بالله، وفي الله، ومن الله، ولله، وأن قد جعل إرادته إرادة الله، وكراهيته كراهية الله، وهو أكمل مقام العبد في الأدب مع الله؛ فهل تجد في أمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠.

(٣) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٥١٠.

(٤) «عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا أَحْضَـرَنِي أَمِيرُ الْـمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَقَدْ وَجَّهَ أَبَا مُوسَى الْأَشْـعَرِيَّ، فَقَالَ لَـهُ: **احْكُمْ بِكِتَـابِ اللهِ وَ لَا تُجَاوِزْهُ**، فَلَمَّا أَدْبَـرَ قَالَ: **كَأَنِّي بِهِ وَقَـدْ خُدِعَ**. قُلْتُ: يَـا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ، فَلِمَ تُوَجِّهُـهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْدُوعٌ؟ فَقَالَ: **يَا بُنَيَّ لَوْ عَمِلَ اللهُ فِي خَلْقِهِ بِعِلْمِهِ؛ مَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ**». الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٥١١.

أحدًا يقاربهُ، أو يقارنه في الكمالِ»[1].

وكما يأتي أنَّ السيِّد يعتقد أنَّ مرجع العلوم الإسلاميَّة إليه سلام الله عليه، وحتَّى الفِرق الصُّوفيَّة[2].

ومن أنَّه عليه السلام لا نظيرَ له بالدُّعاء والمُناجاة: «وكان مع غاية شجاعته إذا شرع في صلاة التهجُّد، وشرع في الدَّعوات، والتَّضرُّعات إلى الله تعالى بلغ مبلغًا لا يوازيه أحدٌ ممَّن جاء بعدَهُ من الزُّهَّاد»[3].

ويخاطب ولدَه: «وليس بغريبٍ يا ولدي محمَّد عمَى من عمِيَ عن نصِّ الله جلَّ جلالُه على جدِّك عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالإمامة، وقد عمي كثيرٌ منهم من نصِّ الله جلَّ جلالُه على وجود ذاته المُقدَّسة الإلهيَّة بوجود آثاره، ودلائله الباهرة في جميع البريَّة»[4].

يتَّضح من هذه العبارة العَلاقة بين معرفة الله عزَّ وجلَّ، ومعرفة نوَّابه الكمَّل (سلام الله عليهم)، وتقدَّم من أنَّه يمكن التعرُّف إلى الله عزَّ وجلَّ عبرَ الواسطة الهُداة له، ومن جهةٍ أخرى الشَّخص الذي يعرف الإمامَ، ولو كان مجملًا، كذلك الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ مرادَ الله عزَّ وجلَّ من الخلق إجماليَّة، نعم، في رأس القائمة معرفة الله عزَّ وجلَّ.

«إنَّه جلَّ جلالُه في المعنى خدمك، وله المثلُ الأعلى بشرفِك بمعرفتِه»[5].

(١) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٥١١.
(٢) لاحظ: المصدر نفسه: ٢/ ٥١٨.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٥١٩.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٩٨.
(٥) المصدر نفسه: ١٤٤.

د. وليُّ الله الأعظم الإمام المهديّ عليه السلام:

إنَّ السيِّد له علاقةٌ خاصَّة مع الإمام المهديّ عليه السلام، والتفاتٌ مخصوصٌ لهُ، لا يسعُنا وصفه.

وثمَّة قصَّة ننقل موضع الحاجة منها، عن إسماعيل الهِرقليّ؛ فبعد لقائه بالإمام الحجَّة (صلوات الله عليه) قال له: «وَقُلْ لِوَلَدِنَا الرَّضِيِّ لِيَكْتُبْ لَكَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عِوَض»[1].

ويصفُ السيِّد معرفته بالإمام (صلوات الله عليه): «فإنَّ أباك عرفهُ أبلغ من معرفة ضياء شمس النَّهار»[2].

وقال أيضًا: «وأوصيكَ يا ولدي محمَّد، وأخاك، ومن يقف على كتابي هذا، بالصِّدق في معاملة الله جلَّ جلالُه، ورسوله صلى الله عليه وآله، وحفظ وصيَّتهما بها بشَّرا به من ظهور مولانا المهديّ عليه السلام»[3].

ويرى أنَّ في عصر الغيبة الطَّريق مفتوحة إلى الإمام (صلوات الله عليه)، ولكن بعناية الله عزَّ وجلَّ، وتفضُّلِه: «والطَّريق مفتوحة إلى إمامِك عليه السلام لمن يريد الله جلَّ شأنُه عنايتَه بهِ، وتمام إحسانه إليه»[4].

---

(١) كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة: ٢/ ٤٩٥، بحار الأنوار: ٥٢/ ٦٣.

(٢) لا بأس أن أنقل العبارة بنحوٍ كامل: «فإن أدركت يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك عرَّفتك من حديث المهدي صلوات عليه ما لا يشتبه عليك، وتستغني بذلك عن الحجج المعقولات ومن الروايات، فإنَّه صلَّى الله عليه حيٌّ موجود على التحقيق، ومعذور عن كشف أمره إلى أن يؤذَن له تدبير الله الرحيم الشفيق، كما جرت عليه عادة كثير من الأنبياء والأوصياء، فاعلم ذلك يقينًا، واجعله عقيدةً وديناً، فإنَّ أباك عرفه أبلغ من معرفة ضياء شمس النهار». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤. (م)

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢١٢.

وأيضًا: «ومنها: أنَّني وجدتُ من يذكر أنَّه يعتقد وجوب رئاستِه، والضَّرورة إلى ظهورِه، وإنفاذ أحكام إمامتِه، لو واصله بعضُ من يدَّعي أنَّه عدوٌّ لإمامته من سلطان، وشملَه بإنعامه، كان قد تعلَّق خاطرُه ببقاء هذا السُّلطان المُشار إليه، وشغله ذلك عن طلب المهديّ عليه السلام، وعمَّا يجب عليه من التمنِّي لعزل الوالي المُنعم عليه.

ومنها: أنَّني وجدتُ من يدَّعي وجوب السُّرور بسرورِه، والتكدُّر بتكدُّره صلوات الله عليه يقول: إنَّه يعتقد أنَّ كلَّ ما في الدُّنيا قد أُخذ من يد المهديّ عليه السلام، وغصبه النَّاسُ، والملوكُ من يديه، ومع هذا لا أراه يتأثَّر بذلك النَّهبِ، والسَّلب، كتأثُّره لو أخذ ذلك السُّلطان منه درهمًا، أو دينارًا، أو مُلكًا، أو عقارًا؛ فأين هذا من الوفاء، ومعرفة الله جلَّ جلالُه، ورسوله صلى الله عليه وآله، ومعرفة الأوصياء»[1].

ويقول في موضع آخر: «إذا كان هذا كلُّه فضل الدَّعاء لإخوانك؛ فكيف فضل الدُّعاء لسُلطانك الذي كان سببَ إمكانِك، وأنت تعتقد أن لولاه ما خلق الله نفسَك، ولا أحدًا من المكلَّفين في زمانِه، وزمانك، وأنَّ اللطف بوجودِه صلى الله عليه وآله سببٌ لكلِّ ما أنت، وغيرك فيه، وسببٌ لكلِّ خيرٍ تبلغون إليه؛ فإيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تقدِّم نفسَك، أو أحدًا من الخلائق في الولاء، والدُّعاء له بأبلغ الإمكان، وأحضر قلبَكَ، ولسانَك في الدُّعاء لذلك المولى العظيم الشَّأن، وإيَّاك أن تعتقدَ أنَّني قلتُ هذا؛ لأنَّه مُحتاجٌ إلى دعائك، هيهات هيهات إنِ اعتقدت هذا فأنت مريضٌ في اعتقادك، وولائك؛ بل إنَّما قلتُ هذا لما عرَّفتك من حقِّه العظيم عليك، وإحسانه الجسيم إليك، ولأنَّك إذا دعوتَ له قبل الدُّعاء لنفسك، ولمن يعزُّ عليك كان أقرب إلى أن يفتح الله جلَّ جلالُه أبوابَ الإجابة بين يديك؛ لأنَّ أبواب قبول الدَّعوات قد غلقتَها أيُّها العبدُ بإغلاق الجنايات؛ فإذا دعوتَ لهذا المولى الخاصِّ عند مالك الأحياء والأموات، يوشك أن يفتح أبوابَ الإجابة

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٦.

لأجله؛ فتدخل أنت في الدُّعاء لنفسك، ولمن تدعو له في زمرة فضلِه، وتتَّسع رحمة الله جلَّ جلالُه لك، وكرمه، وعنايته بك لتعلُّقك في الدُّعاء بحبلِه»[1].

ويشير إلى تأثير إمام العصر الحجَّة الأعظم (صلوات الله عليه) في الوجودِ، وتقديم الدُّعاء لهُ قبل الدُّعاء للنَّفس، وحوائجها؛ بل يذهب إلى الوجوب في التَّقديم: «وإنَّما قُلنا تقدِّم حوائج الصَّفوة من العترة النبويَّة؛ لأنَّ بقاءَ الدُّنيا، وأهلها بمن يكون لطفًا، وقُطبًا، وحافظًا للأمانات الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة؛ فإذا كنتَ محفوظًا بواحدٍ على مُقتضى اعتقادِك؛ فكيف تقدِّم حوائجَكَ على حوائجِه؛ بل يجب أن تقدِّم حوائجَهُ على حوائجِك، ومُرادَهُ على مُرادِك»[2].

٥. فروعُ العِرفان العلميّ

نشير في نهاية الفصل إلى مفاصل العِرفان العلميّ بنحو الإيجاز، والاختصار لما تقدَّم.

٥-١. إنَّ المعرفة من دون واسطةٍ من جملة مفاصل العرفان العلميّ، وفي نظر السيِّد: المعرفة الفطريَّة، والشهوديَّة من هذا القبيل.

وعدَّ المعرفةَ من دون واسطةٍ لله ﷻ أسهل، وأقرب، ويتوافر فيها الأمان، ولا تحتاج إلى مؤمنة زائدة، وهي عطيَّة من الله ﷻ[3].

٥-٢. يمكن تقسيمُ المعرفة مع الواسطة على قسمَين: العقل، والنّقل؛ فالسيِّد يعدُّ العقلَ أحد طرائق المعرفة، مع أنَّه يميل بشدَّة إلى الطّريق من دون واسطة، كطريق

(١) فلاح السائل: ٤٤.
(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٢٩.
(٣) لاحظ: فرج المهموم: ١.

القلب[1]؛ فيعتقد السيِّد أنَّ المعرفة المقبولة من العقل ينبغي مراجعة الكتب السماويَّة، وسيرة النوَّاب الكمِّل، وتقويتها بذلك.

٥-٣. يعتقد السيِّد أنَّ إعطاء المعرفة من الله ﷻ في النَّظرة الأوَّليَّة غير متساوية، ولكن بنظرٍ أعمق، وأوَّلي؛ فأساس معرفة الله ﷻ موجودةٌ بجُودِه تعالى؛ فلا فرقَ حينئذٍ: «..إنَّ معرفة الله جلَّ جلالُه من جودِه»[2].

ويرى أنَّه ينبغي على كلِّ شخصٍ تكميلُ هذه العطيَّة عبرَ الطَّلبِ، والسُّؤال من الله تعالى: «لتطلبَها من باب الوِفادة عليه مع وفودِه»[3].

ويعتقد أنَّ معرفة الله ﷻ يمنُّ الله بها على عبده الضَّعيف، ويفهمه إيَّاها: «إنَّما الله جلَّ جلالُه يسلك بالعبد الضَّعيف إلى التَّعريف تسليكًا يقصر فهمُه عنه»[4].

ببيان آخر: إنَّ معرفة الله تعالى سواء بقوس الصُّعود أم بقوس النُّزول بالله تعالى؛ فيرى السيِّد أنَّ المعرفة فضلٌ من الله؛ بل حتَّى الأهليَّة، والاستعداد لها من جُوده، وفضلِه ﷻ[5].

٥-٤. غير معلوم زمن المعرفة، يعدُّ السيِّد وقت معرفتِه بالله ﷻ من الأوقات الشريفة، والسعيدة؛ إذ شرَّفه ﷻ لطاعتِه: «إنَّ وقت تعريفه لكَ بعظمته، واستخدامك في طاعته، كان من أشرف أوقات الإسعاد، والإرفاد»[6].

(١) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨-٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ٥٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ٥٥.
(٥) المصدر نفسه: ٧٥ و١٤٤.
(٦) المصدر نفسه: ٧٧.

ويعدُّ السيِّد هذا النَّحو من المعرفة لهُ علامةٌ خاصَّةٌ تختلف عن علامة المعرفة الكسبيَّة النَّظريَّة، وهي أنَّ هذا النَّحو من المعرفة لا يعرف وقته: «فلذلك لا يعرف وقت المعرفة، ولا ما قرُب منه»[1].

ويصرِّح بأنَّ هذا الوقت غير معلوم، ولا تقريبَ لهُ أيضًا: «أنَّك تجد أكثر العارفين لا يعرفون وقت معرفتِهم به جلَّ جلالُه، ولا يوم ذلك، ولا ليله، ولا شهره، ولا سنته؛ ولو كان بمجرَّد كسبِهم، ونظرِهم قد عرفوه، لكان وقت ذلك أو ما قاربَه قد فهموه؛ لأنَّك تجد العقل شاهدًا أنَّ من عرف سلطانًا عظيمًا بعد أن كان جاهلًا بمعرفته، وكان وجه التَّعريف به من جهةٍ يدركُها الإنسان باجتهاده، وهمَّته؛ فإنَّه يعرف وقت المعرفة بذلك السُّلطان، أو ما قارب ذلك الزَّمان؛ وإنَّما الله جلَّ جلالُه يسلك بالعبد الضَّعيف إلى التَّعريف تسليكًا يقصر فهمُه عنه؛ فلذلك لا يعرف وقتَ المعرفة، ولا ما قرُب منه»[2].

٥-٥. التَّناسب والتَّناسق مع معلومات الله ﷻ ومقدوراته، السيِّد يعتقد: «أنَّ طرق المعرفة بالله جلَّ جلاله بحسب معلوماته ومقدوراته على الأنام، ولا ينحصر عددُها بالأفهام»[3].

ويعلِّق على قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[4]، من نبيِّ الله عيسى (صلى الله على نبيِّنا وآله، وعليه السَّلام) كلامه في المهد لم يكُنْ من سنخ العلم النظريّ، والاستدلال[5].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ٥٦.
(٤) سورة مريم، الآية: ٣٠.
(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٦.

وعدَّ السـيِّد أنَّ العقلَ والعين من الله ﷻ، جعلَهـا أداةً للتعرُّف إليها: «أما تعلم أنَّ العقل الذي هو النُّور الكاشـف عن المعارف، ما هو من كسـبك، ولا من قدرتك، وأنَّ الآثـار التي تنظر إليها ما هي من نظرتك، وأنَّ العـين التي تنظر بها ما هي من خلقتك، وأنَّ البقاء الذي تسعى فيه لنظرك، وكلُّ ما أعانك على نظرك ما هو من تدبيرك، ولا من مقدورك، وأنَّه من الله جلَّ جلالُه»[١].

يقول حافظ الشيرازيّ:

قلتُ لها: من بعدٍ لا أسمح لخيالكِ أن يدخل ذهني.

قالت: إنَّها تأتي ليلًا، ومن طريق آخر[٢].

ويـرى أنَّ الشَّـخص المُسـتأنِس بطريـق النَّظر يخيَّل لـه أنَّه الطَّريـق الوحيد لمعرفة الله ﷻ: «لأجـل مـا قـد ألِفَـه مـن أنَّ معرفـة الله جلَّ جلالُـه لا طريـقَ إليهـا إلَّا بنظر العبد»[٣].

٥-٦. الاسـتمرار على المعرفـة، ومعرفة ما يُراد منـه: «إنَّ المعرفة بالله جلَّ جلالُه، سـواء كانت من الله جلَّ جلالُه، أو من العبد، أو منهما؛ فإنَّما يكون الثَّواب على استمرار العبد عليها، ولزوم ما يُراد منه بها، ولها»[٤].

٥-٧. الالتزام العمليّ بالشَّـريعة؛ فيرى السـيِّد أنَّ المعرفة ينبغي أن ترافقَها معرفة التَّكاليف، وتطبيقها، ويكون الثَّواب على ضوئِها[٥].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٦.
(٢) ديوان حافظ: ٢٥٠، وهو باللغة الفارسيَّة. (م)
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٦.
(٤) المصدر نفسه: ٥٧.
(٥) المصدر نفسه.

٥-٨. الأهليَّة، والاستعداد للمعرفة، يرى السيِّد أنَّ المعرفةَ تحتاج إلى الأهليَّة، والاستعداد[1]، ولا يخفى أنَّ في قوس النزول لا يلحظ فيه القابليَّة، ولا يعدُّ شرطًا لها، وأمَّا في قوس الصُّعود؛ فالقابليَّة شرطٌ، مع أنَّه يرجع لما هو في قوس النُّزول؛ فهو موجودٌ بالقوَّة فيها؛ فهما مترافقان.

٥-٩. بلوغُ الاعتقاد بأنَّه ﷻ المالك على الإطلاق، يعتقد السيِّد أنَّ المعرفة لها علاقةٌ بمسألة المالكيَّة على الإطلاق لله ﷻ، ونتيجة هذا الاعتقاد فإنَّ المالك الحقيقيّ للدُّنيا، والآخرة الله ﷻ فقط، وفقط.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٨.

الفصل الثاني

العرفان العمليّ
(سلوك السائلين)

مقدِّمة

قبل الدُّخول في هذا الفصل، نبيِّن رأيَ السيِّد في الدُّعاء، ونبحث فيه أمرَين: تعريف الدُّعاء من منظار السيِّد، ومكانة الدُّعاء في السُّلوك العمليّ.

١. تعريف الدُّعاء من منظار السيِّد ابن طاووس

١-١. يعدُّ معنى الدُّعاء هو مناجاة الله ﷻ، منطلقًا في ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1].

«قول الله جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، أقول: فلم يجعلْ لهم لولا الدُّعاء محلًّا، ولا مقامًا؛ فقد صار مفهوم ذلك أنَّ محلَّ الإنسان ومنزلته عند الله جلَّ جلالُه على قدر دعائِه، وقيمتُه بقدر اهتمامِه بمُناجاته، ونِدائِه، وعساك تجد من يقول لك إنَّ المُراد بالدُّعاء في هذه الآية العبادة، والحقُّ ما رواه الثِّقات عن أهل الأمانة، والسِّيادة من أنَّ المُراد بالدُّعاء في هذه الآية هو الدُّعاء المفهوم بعُرف الشَّرع من غير زيادة، ومن الآيات قول الله جلَّ جلالُه:

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]، فنبَّه الله جلَّ جلالُه على أنَّهم لو تضرَّعوا أزال بأسَه، وغضبَه، وعقابَه عنهم، وكشف كروبهم، وما قال: ولو أنَّهم إذ جاءهم بأسُنا صلُّوا، أو صاموا، أو حجُّوا، أو قرؤوا القرآنَ، وفي ذلك بيانٌ لأهل الأفهام من الأعيان.

ومن ذلك وعده المقدَّس بأنَّ الدُعاء مفتاح بلوغ الآمال، والأماني في قولِه جلَّ جلالُه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2]، ومن ذلك قولُه جلَّ جلالُه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]؛ فَنَبَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الدُّعَاءِ اسْتِكْبَارٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَسَبَبٌ لِدُخُولِ النَّارِ، وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ.

وَقَدْ رَوَى الْحُسَيْنُ بْنُ سَعِيدٍ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي يَسْتَكْبِرُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الدُّعَاءُ، وَأَنَّ تَارِكَهُ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ بِهِ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ.

وفي بعض ذلك كفايةٌ للعارفين، ولو لم يكن في فضيلة الدُّعاء إلَّا قول الله جلَّ جلالُه لسيِّد الأنبياء صلى الله عليه وآله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[4]، وهذا عظيمٌ؛ لأنَّه صدر على مقتضى المدح لهم، وكان دعاؤهم بالغَداةِ والعشيِّ سبب أمر الله جلَّ جلالُه لرسولِه صلى الله عليه وآله بملازمتِهم، وألَّا تعدو عيناهُ الشريفتانِ عن صُحبتِهم»[5].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٥) فلاح السائل: ٢٦.

«عن مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: رَجُلَانِ افْتَتَحَا الصَّلَاةَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَلَا هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ دُعَائِهِ، وَدَعَا هَذَا، فَكَانَ دُعَاؤُهُ أَكْثَرَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: **كُلٌّ فِيهِ فَضْلٌ، كُلٌّ حَسَنٌ**. قَالَ قُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا حَسَنٌ، وَأَنَّ كُلًّا فِيهِ فَضْلٌ؛ فَقَالَ: **الدُّعَاءُ أَفْضَلُ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، أَلَيْسَتْ هِيَ الْعِبَادَةَ؟ هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، أَلَيْسَتْ أَشَدَّهُنَّ؟ هِيَ وَاللهِ أَشَدُّهُنَّ، وَاللهِ أَشَدُّهُنَّ**»[1].

ويُفهم ممَّا تقدَّم أنَّ الدُّعاء عبادةٌ، ويعدُّ السيِّد العبادةَ خاصَّةً بالله عزَّ وجلَّ، ومنه يُعلَم أنَّ رأي السيِّد الدُّعاء مُناجاة، وينبغي أن يكون لله فقط، لا يقصد به الثَّواب، أو الخوف منَ العِقاب.

١-٢. مكانة الدُّعاء في السُّلوك

يعدُّ الدُّعاء من شؤون العبوديَّة في السُّلوك العمليّ، ويعدُّ طريق الارتباط، والأنس، وتكلُّم العبد مع ربِّ الأرباب، والمالك على الإطلاق[2]، ويمكن أن نشير إلى جملة من الأمور المهمَّة في مكانة الدُّعاء، وإليك إيَّاها:

يعتقد السيِّد أنّ ظهور الإنسان من كتم العدَم إلى مقام الإنسانيَّة، والسماويَّة مرهونٌ بفضل الله تعالى، وبفضله تعالى أخرجه من الطَّبيعة الماديَّة، والمعنويَّة إلى رُشده، وتربيته؛ فالإنسان ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا﴾[3]، ومن دونِ استحقاقِ خلقِه من ترابٍ، وجعل الله

(١) فلاح السائل: ٢٦.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٥.
(٣) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان، الآية: ١).

الأهليَّـة للمعرفة، وكلُّ هذا فضلٌ من الله تعالى، «فبلغ فضلُ الله جلَّ جلالُه على ابن آدم المخلوق منها إلى أن رفعَ الله جلَّ جلالُه عن دناءة تلك الأسـباب، وجعلهُ أهلًا أن يدلَّه على مقدَّسِ معرفتِه، وحقوق نعمتهِ، ويتشـرَّف بخِدمته، ويُكرمه بمشافهتِه، ومُجالسته، ويهيِّئ لهُ السَّـماواتِ، والأرض، وما فيها من المنافع بيدِ قُدرته، ويسـتخدم في مصالحه، وسـعادته مُقدَّس علمِه، وإرادته، حتَّى يبلغَ إلى أنَّه يتولَّى بيد تدبيرِه، ورحمتِه في جسـدِه بثوب طهارتِه»[1].

ومنـه: «فمن ذلك قـول الله جلَّ جلالُـه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، أقـول: فلم يجعلْ لهم لولا الدُّعـاء محلًّا، ولا مقامًا؛ فقد صار مفهوم ذلك أنَّ محلَّ الإنسان، ومنزلته عند الله جلَّ جلالُه، على قدر دعائهِ، وقيمته بقدر اهتمامِه بمُناجاتِه، ونِدائِه»[2].

هـذا بيـانُ مكانة الدُّعاء في السُّـلوك العمليّ، وفضلًا عن ذلك يقول السـيِّد: «وفي بعـض ذلك كفايةٌ للعارفين، ولو لم يكن في فضيلة الدُّعاء إلَّا قول الله جلَّ جلالُه لسـيِّد الأنبيـاء عليه السلام: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، وهـذا عظيمٌ؛ لأنَّه صدر عـلى مُقتضى المدح لهم، وكان دعاؤهم بالغَداة، والعشيِّ سـبب أمر الله جلَّ جلالُه لرسـولِه صلى الله عليه وآله بمُلازمتهـم، وألَّا تعدو عيناهُ الشريفتانِ عن صُحبتهِم»[3].

وهنا أمران:

أ. مدح الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ؛ «لأنَّه صدر عن طريق المدح».

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٦.
(٢) فلاح السائل: ٢٦.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧.

ب. دعـاء هؤلاء في النَّهار والليل صار سـببًا لأمر الله تعـالى نبيِّه ﷺ بالمعيَّة معهم، «وكان دعاؤهـم بالغـداة والعـشيِّ سـبب أمـر الله جـلَّ جلالُه لرسـولِه ﷺ بمُلازمتهم».

ويسـتمرُّ في بيان مكانة الدُّعـاء، ويقول: «إنَّه [الدعاء] أحـبُّ الأعمال إلى الله جلَّ جلالُه»(١).

و: «إنَّـه يُنجي مـن الأعـداء، وأهل الشِّـقاق، ويفتـح أبـواب الأرزاق»(٢)، وأنَّه سـلاحُ المؤمن، وعمود الدِّين(٣)، وإنَّه شـفاءٌ من كلِّ داءٍ(٤)، ويردُّ القضاءَ المُبرم(٥)، ويردُّ البَلاء(٦).

ويفضِّل الدعاءَ على قراءة القرآن، مسـتندًا في ذلك إلى الأخبار، منها ما تقدَّم سابقًا عـن الإمام الباقر عليه السلام: «**الدُّعاء أفضل**»، وعن صادق آل محمَّد ﷺ من أنَّ الدُّعاءَ أفضل، وكذا تفسـيره سـلام الله عليه للآية من سـورة غافر ﴿عِبَادَتِي﴾ حينما سُـئِل عنها، وأنَّ الدُّعاءَ أفضل من قراءة القرآن(٧).

(١) فلاح السائل: ٢٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ٢٨.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ٢٩.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) «عـن مُعَاوِيَـةَ بْنِ عَمَّـارٍ قَالَ: قُلْـتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: رَجُلَانِ افْتَتَحَا الصَّلَاةَ فِي سَـاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَـلَا هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ دُعَائِهِ، وَدَعَا هَذَا، فَكَانَ دُعَاؤُهُ أَكْثَرَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَا فِي سَـاعَةٍ وَاحِـدَةٍ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: **كُلٌّ فِيهِ فَضْلٌ، كُلٌّ حَسَـنٌ**. قَالَ قُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا حَسَـنٌ، وَأَنَّ كُلًّا فِيـهِ فَضْـلٌ؛ فَقَالَ: **الدُّعَاءُ أَفْضَلُ، أَمَا سَـمِعْتَ قَـوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**»،=

ويمكنُ أن نضيفَ شيئًا في نظر السيِّد من أنَّ الشَّخص من دون إيمانٍ لا يحصل على الثَّواب، ولكن يمكن استجابة الدُّعاء له من دون إيمانٍ، كما جاء في القرآن الكريم في ذِكر إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1].

ويمكن سوقُ الكلام من جهةٍ عقليَّةٍ أنَّه لا يلزم من قراءة القرآن معرفة الله تعالى، وأمَّا الدُّعاء فدائمًا مسبوقٌ بالمعرفة، ولو إجمالًا، فلا يمكن الدُّعاء من دون معرفة؛ فلا طلبَ حينئذٍ[2]، وببيانٍ آخر: إنَّ الغرضَ من قراءة القرآن التعرُّفُ على الرِّسالةِ المُلقاة، أمَّا الدُّعاء، فعكس قراءة القرآن؛ فالدَّاعي هو يرسلُ رسالةً، وهذا فيه نحوُ معرفةٍ، كما لا يخفى.

ويعتقد أنَّه ينبغي لقارئ القرآن إظهار الاحترام، والعظمة لله تعالى، كما بيَّن ذلك عند حديثِه عن تعقيب صلاة العصر: «ومن المهمَّات من تعقيب العصر قراءة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ عشر مرَّاتٍ؛ فإذا أردت قراءتها؛ فلتكُن أنت على صفاتِ من هو بين يدي سلطان الأرَضين والسَّماوات، يقرأُ كلامَه جلَّ جلالُه في حضرته بالهيبة، والاحترام، والإعظام، ويقصد العبادةَ لهُ جلَّ جلالُه؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة، لا لأجل الثَّواب في دار المقام»[3].

ويبيِّن في هذا السِّياق ما ينبغي أن يقصد حين قراءة القرآن: «اعلمْ أنَّ المُراد من قراءتك القرآنَ أن تستحضرَ في عقلك وقلبك أنَّ الله جلَّ جلالُه يقرأ عليك كلامَه

=هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، أَلَيْسَتْ هِيَ الْعِبَادَةَ؟ هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، هِيَ وَاللهِ الْعِبَادَةُ، أَلَيْسَتْ أَشَدَّهُنَّ؟ هِيَ وَاللهِ أَشَدُّهُنَّ، وَاللهِ أَشَدُّهُنَّ». تهذيب الأحكام: ٢/ ١٠٥.

(١) سورة الحجر، الآيات: ٣٦-٣٨.

(٢) أدب الحضور: ٧٤-٧٦.

(٣) فلاح السائل: ١٩٩.

بلسانك؛ فتسمع مقدَّس كلامِه، وتغترف بقدر إنعامه، وتستفهم المُراد من آدابه، ومواعظه، وأحكامه»[1].

يعدُّ تهذيب النَّفس من المسائل المهمَّة في السُّلوك العمليّ، وما ينبغي الالتفات له أنَّ السيِّد ابن طاووس يربط تهذيبَ النَّفس بالمُناجاة؛ فإنَّه يعتقد عن طريق رعاية الدُّعاء وأدبه يمكن الوصول لذلك المهمِّ، «فإيَّاك أن تهملَ تهذيب نفسك وقلبك، خاصَّةً عند مخاطبة مولاكَ، وربِّك؛ فإنَّك إذا دعوتَ الله جلَّ جلالُه، وقلبك في تلك الحال فارغ منه، أو مشغول بالغفلة عنه، أو بقصور احترام، وتهوين منك بجلالة ذلك المقام كنت كأنَّك تخاطب ملكًا من ملوك الدُّنيا في حاجةٍ إليه، وظهرك إليه، أما تعلمُ أنَّك إذا خاطبتَ المُلوك، وظهرُك إليهم، أو أنتَ مشغولٌ عنهم بالغفلةِ، والتَّهوين بهم عن الإقبال عليهم؛ فإنَّك تعلم أنَّك تستحقُّ أن يكون جوابُك منهم أن يخرجوكَ من حضرتهم مطرودًا، وعن رحمتهم مصدودًا»[2].

وعليه تتَّضح مكانة الدُّعاء في السلوك، وأهميَّته من مِنظار السيِّد.

يعدُّ السيِّد منشأ تكرار أخطاء الإنسان أمرَينِ:

الأوَّل: القدرةُ المحدودة لهُ، الثاني: ضعف اختياره.

ومعه فهو يعتقد أنَّ الطَّريقَ لعدم تكرار الأخطاء اعتمادُه على القُدرة اللامحدودة، والإرادة، والاختيار الذاتيّ المُتأصِّل.

ومن هنا جاء تأسيس فلسفة الدُّعاء، باعتقاد السيِّد: «علمَ جلَّ جلالُه أنَّ اتِّكاله على مجرَّد قدرة العبد، وضعف اختياره، يقتضي تكرار عثارِه؛ فبعث له على لسان الأنبياء،

(١) إقبال الأعمال: ١/ ١١١.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٠٥.

والأوصيـاء من دروع الدَّعوات، وحُصون الصَّدقات ما يكون أمانًا له من المخافاتِ في الطُّرقات»[1].

يعدُّ السيِّد الدُّعاءَ من التَّدابير الإلهيَّة لتلافي ما يقعُ به العبد من أخطاءٍ، وبما يتناسبُ مع النِّظام الوجوديّ للبشر «علم.. يقتضي.. فبعث له».

وممَّا ينبغي الإشارةُ إليه أنَّه يرى ممَّا ينبغي على الدَّاعي أن يعلمَ أنَّه لم يكن شيئًا، وأنَّه مُحتاجٌ إلى مولى دائمًا، وأبدًا: «ينبغي أن يكون الدَّاعي عليه أن يعرف أنَّه عبدٌ مملوكٌ لمالكٍ قادرٍ قاهرٍ مطَّلعٍ عليه، وأنَّ هذا العبد لا غنى لهُ عن سيِّده، ولا يخلو أبدًا من الحاجةِ إليه، وأنَّ هـذا المالك جلَّ جلالُه في أعظم الجلالة، والمهابة، وعلوِّ الشَّـأن، وأنَّ هذا العبدَ في أدون الرَّذالة، والمهانة، والنُّقصان، وأنَّ أصلَه من التُّراب، ومِنْ طِينٍ، ومِنْ حَمَإٍ مَسْـنُونٍ، ومِـنْ ماءٍ مَهِينٍ؛ ثمَّ يدهُ صفرٌ من حياتِه، ومن وجـوده، ومن عافيته، ومن تدبير أصول سعادته في دُنياه، وآخرته؛ فإذا أضاف هذا العبدُ إلى هذا الأصل الضَّعيف السَّقيم المهين الذَّميم مخالفةَ مولاه المُحسـن إليه القـادر القاهر المطَّلع عليه، وهـوَّن بجلاله، وإقباله، وعارضَهُ في فعاله ومقاله، ورأى غيرَ ما يرى من مصالح أحوالِه..»[2].

ويُفـترض بالعبد أن يكونَ عنـد الدَّعواتِ والمُناجاة: «فيجـب أن يكونَ حالُه عند الدَّعـوات والمُناجـاة، كما يكون العبد الخائـن الذَّليل بين يدي مـولاه، يخاطب خطابَ الذَّليـل العزيـز الجليل، وخطـاب الحقير الفقير للمالـك الغنيِّ العـليِّ الكبير، وخطاب الضَّعيف السَّـخيف للمـولى المرهوب المخوف، وخطـاب أهل الجِنايـات، والخِيانات لأعظم مالكٍ قادرٍ على الانتقام في سائر الأوقات..»[3].

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٨.
(٢) فلاح السائل: ٣١.
(٣) المصدر نفسه.

وعليه أن يكون حالُه: «وأن يكون مراده جلَّ جلالُه من دعائك له في مُقدَّس حضرة وجودِه مقدِّمًا على مرادك من رحمته، وجودِه؛ فيكون تلذُّذك بحمدِه، وتعظيم شأنِه، والاعتراف بإحسانه أحبّ إليك في أوقات الدُّعاء من ذِكر حوائجك، ولو كانت من مهمَّاتك في دار الفناء، أو لدفع أعظم البلاء؛ فإنَّك أيُّها العبدُ لو عرفته جلَّ جلالُه على اليقين، عرفتَ أنَّ اشتغالَك بحفظ حرمتِه، وحقِّ رحمتِه أبلغ فيما تراه من إجابتِه، ومُساعدته»[1].

ويسجِّل فوائد الخلوة، ومُناجاة الله ﷻ: «.. رأيت فوائد الخلوة، والمُناجاة، وما فيها من مراده لعبده من العزِّ، والجاه، والظَّفَر بالنَّجاة، والسَّعادة في الحياة، وبعد الوفاة..»[2].

وتمثِّل كتب الأدعية أكثر مكتبة مؤلَّفات السيِّد: «وهيَّأ الله جلَّ جلالُه عندي عدَّة مجلَّدات في الدَّعوات، أكثر من ستِّين مجلَّدًا؛ فالله في حفظها، والحفظ من أدعيتها؛ فإنَّها من الذَّخائر التي يتنافَس عليها العارفون في حياطتها، وما أعرف عند أحدٍ مثل كثرتها، وفائدتها، وهي باب مفتوحٌ بينك وبين مولاك، وهي سلاحُ المؤمن، وسبيلٌ إلى سعادة دنياك، وأُخراك، وقد ذكرت في كتاب (المهمَّات والتتمَّات) شروط الدَّعوات؛ فاطلبْها من تلك الجِهات»[3].

١-٣. إنشاءُ الأدعية

تقدَّم أهميَّة الدُّعاء بنظر السيِّد، وما بذلَهُ من جهدٍ في تحقيقه، ونقلِه، وثمَّة مسألةٌ هنا، فما لم يردْ فيه دعاءٌ، هل يمكن إنشاؤه اعتمادًا على ما ورد من الرُّخصة الدينيَّة في

(١) فلاح السائل: ٣١.
(٢) المصدر نفسه: ٦.
(٣) كشف المحجَّة: ١٨٩.

إنشائه(1): «لم أجدْ إلى الآن تعيين دعاءٍ لذلك المقام المعروف؛ فيقول إن يشاء [شاء] ما نذكره على سبيل الإنشاء ما يطلقه على قلمنا مالك الأشياء»(2).

«أقول: وها نحن نختم ما اخترناهُ في كتابنا هذا من الدَّعوات المدخورة، والأسرار المستورة، بدعاءٍ أورده الله ﷻ على خاطرنا، وهو جلَّ جلالُه لمنشئ سرائرِنا، والمالك لبصائرنا»(3).

«ونحن نقول بحسب ما يحتاج إليه للإذن منهم عليهم السلام للإنسان في الدُّعاء بما أفاض الله تعالى عليه فنقول، وبعضه من المنقول»(4).

ويذهب بعض المُحقِّقين إلى القول: «كأنَّه يرى نفسه مأذونًا في جعل وظائف مقرَّرة لمواضع المكرمة، ومواقف صالحة، كما ترى أنَّه يذكر أعمالًا من عند نفسه ظاهرًا لمسجد الكوفة، وأمثالها، غير مأثورة في شيء من كتب أصحابنا المستوفين لوظائف الشَّريعة في مؤلَّفاتهم، ولا منسوبة في كلمات نفسه إلى أحد من المعصومين عليهم السلام، مع أنَّ من ديدنه المعروف ذِكر السَّند المتَّصل إليهم في كلِّ ما يجده من الجليل، والحقير، ولا ينبِّئك مثل خبير»(5).

(1) فَقَدْ رَأَيْتُ فِي كِتَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمَّادٍ الْأَنْصَارِيِّ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْهُ، عِنْدَ مِقْدَارِ ثُلُثِهِ، بِإِسْنَادِهِ، قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: عَلِّمْنِي دُعَاءً. فَقَالَ: **إِنَ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ مَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ**.

وَرَوَى سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فِي كِتَابِ الدُّعَاءِ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ زُرَارَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: عَلِّمْنِي دُعَاءً. فَقَالَ: **إِنَّ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ مَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ**. الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٩.

(2) إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٧

(3) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ٣٤٨.

(4) المصدر نفسه: ١١٠.

(5) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات: ٤/ ٣٣٠.

ويصفُه صاحب الرَّوضات: «كونه في فصاحة المنطق، وبلاغة الكلام؛ بحيث تشتبه كثيرًا ما عبارات دعواته الملهمة، وزياراته الملقمة، بعبارات أهل بيت العصمة عليهم السلام»[1].

ويحتمل الميرزا الخوانساريّ أنَّ منشأ إنشاء السيِّد للأدعية هو الإذن لهُ بذلك[2].

كتب المرحوم العارف بالله الميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ في بيان أسرار المُراقبات لشهر ذي الحجَّة: «وفي الدُّعاء الذي أنشأه السيِّد عليه السلام أيضًا مضامين عالية لأهل الذِّكر من المُراقبين؛ فجزاه الله عنَّا خير جزاء المُرشدين»[3].

وكذا ذكر العلَّامة حسن زاده الآمليّ أنَّه يُنشئ الدَّعاء، وهو عالمٌ مُستبصر[4].

ويُنقَل عن العلَّامة الطباطبائيّ أنَّه يعدُّ السيِّد من الكُمَّل[5].

«وهذه المسألة قرَّة عينِ المُستبصر، وعلى أساسِها قال السيِّد ابن طاووس بشأن دُعاء هلال شهر شوّال (كتاب الإقبال: ٣٠٥، فصل: ما يُقال عند رؤية هلال شوَّال): فقد قدَّمنا في كتاب عمل الشَّهر دعاءً أنشأناهُ، يصلح لجميع الشُّهور؛ فإن لم يجدْه، فليقُلْ عند

(١) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات: ٤/ ٣٣٠، سجَّل المرحوم عبَّاس القمِّيّ في هذا المجال: «أعرب السيِّد الفاضل المعاصر في الرَّوضات، في ترجمة هذا السيِّد الجليل (السيِّد ابن طاووس)، فأراد مدحه وتبجيله، فقدحهُ، وأخرج كتابه الشريف (مصباح الزائر عن الاعتبار)، وأخرج جملة من الأدعية والزيارات من حريم ساحة الأخبار لمجرد الخرص والتخمين ومتابعة ما دار في أفواه القاصرين». الفوائد الرضويَّة في أحوال علماء مذهب الجعفريَّة: ٤/ ٣٣٠.
(٢) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات: ٤/ ٣٣٠.
(٣) المراقبات: ٣٤٣.
(٤) رسالة نور على نور: ٧١-٧٢.
(٥) المصدر نفسه.

رؤيـة الهلال المذكور: اللهمَّ إنَّك قـد مننتَ علينا بضياء البصائـر، والأبصار.. إلى آخر الدُّعاء، وهو من إنشـاء السـيِّد، وقد صدرتِ الكثير من نظائره عن علماء المُستبصرين، وكان المرحوم الأسـتاذ العلَّامة الطباطبائيّ، صاحب تفسـير الميزان، يقول: «إنَّ السـيِّد ابن طـاووس، وابن فهد صاحـب عدَّة الدَّاعي، والسـيِّد بحر العلوم، مـن الكاملين» يُضـاف إلى ذلك أنَّ في ذيل الحديث المذكور سـرًّا مُستسـرًّا لأهل الأسرار، وتوجد في القرآن الكريم الكثير من الإشـارات لذلك، منها ما في آيات سـورة الصافَّات؛ فليُتدبَّرْ فيها»[1].

ويشيرُ السيِّد إلى أنَّه في إنشائه للأدعية من سجعٍ، ووزنٍ، متأسِّيًا بالآيات الكريمة، والروايات الشَّـريفة: «ربَّما يكون الدُّعاء الذي ننشـئُه كالمنثور، والقرائن[2]، والسَّجع، وعسى أن يوجد في بعض الروايات»[3].

(١) رسالة نور على نور: ١١٨.

(٢) في المصـدر، الهامش: ١، مكتـوب: «في (ش): القرآن؛ ولعلَّ المراد الأدعية القرآنيَّة التي وردتْ في كلام الله المجيد». (المراجِع).

(٣) ولا بـأس أن أنقل النصَّ بتمامـه للفائدة: «وربَّما يكون الدعاء الذي ننشـئه كالمنثور، والقرائن، والسَّجع، وعسى أن يوجد في بعض الروايات أنَّ السَّجع في الدُّعاء، وغيره مكروه؛ ولعلَّ تأويل ذلك، إنْ صحَّت الرواية، أن يكون السَّـجع عن تكلُّف، أو لغير الله، أو قاصرًا عن آداب السـنَّة والكتاب؛ لأنَّنا رأينا وروينا أدعية كثيرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم أفضل الصلاة والسـلام، على سبيل السَّجع والنثر وترتيب الكلام، وفي صحائف مولانا زين العابدين عليه السلام كثيرٌ ممَّا ذكرناه، وفي القرآن الشريف آثار كثيرة على نحو ما وصفناه.

ونحن ما نذكر في الإنشاء من الدعاء إلَّا ما نجده من غير رويَّة ولا كلفة، بل إفاضة علينا من مالك الأشـياء الذي هو ربِّي وحسـبي، كما قال جلَّ جلالُه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ (يوسـف: ٣٧). ونحن ذاكرون لما يشـتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب والفصول وإشارات إلى معانيه بحسب المعقول والمنقول وعددها على التفصيل؛ ليعلم الناظر فيها الموضع الذي يحتاج إليه منها، فيقصده ويظفر به على التعجيل إن شاء الله تعالى». الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٩. (م).

وقد نقلَ طرفًا من الأدعية التي أنشأها في سفرِه في كتابه (الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٢٩).

٢. أصول السُّلوك

لا شكَّ في أنّ السُّلوك في العمل لهُ أصولٌ، وحدودٌ، ومواصفات، ومن دون ذلك لا يكون سلوكًا للسَّائلين، وعليه بمراعاة ذلك للسَّالكين يدخلهم حقيقةً في ضمن السَّالكين؛ فالسُّلوك من دون أصولٍ، وحدودٍ يضحى الاتِّجاه التائه في الباطن، وبدلًا من فتح طريق الإنسان، وجعله يحلِّق بجناحيه، أغلقوا ذلك، وأثقلوه.

الإنسان كائنٌ حرٌّ في معظم خيارته، وحالاته المصيريَّة؛ وعلى هذا الأساس، إمَّا أن يكون باطنه محلَّ التحلِّي بالفضائل، أو هو مستودع للرَّذائل، وتذهب به إلى الكسل، والفشل.

أمَّا الفضائل فتُساق في قالبٍ، وأصول، وحدودٍ، وشرائط باطنيَّة، ونظامٍ، يضحى بالحقيقة ظرفَ قلبِ الإنسان يتَّسع لعوالم الوجود، ومنه تحصل له القابليَّة والقُدرة على درْك الحقائق؛ ولذا الأشخاص الذين لديهم هدف متعالٍ يكون عندهم إصرارٌ بالالتزام بالأُصول، وحدود السُّلوك عبر التحرُّك الحِسِّيّ، والباطنيّ، والمُحافظة، والتَّصميم على حريم، وحرمة للوصول الصَّحيح للقصد، والمقصود.

بالأساس هدف السَّالك، كما في تعبير السيِّد: «فاجتهد أن يكون قلبُك، وعقلُك مصاحبًا له بالتَّعظيم، وجوارحك محافظة على سلوك السَّبيل المُستقيم؛ فمن عادة المملوك المؤدَّب الكامل أن يكون موافقًا لمالكه في سائر مسالكِه»[1].

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٥.

وأشار السيِّد إلى الأصول العلميَّة للسُّلوك، وذكر جملة من المُلاحظات في خصوص الأصول العلميَّة، أو العمليَّة للسُّلوك من أنَّه إلقاءٌ من الله تعالى[1].

تعدُّ من جُملة المُقدِّمات للسلوك إلى الله تعالى في نظر السيِّد: «فأوصيك بتعلُّم الخطِّ على التَّمام؛ فإنَّه معونةٌ لك على السُّلوك إلى الله جلَّ جلالُه، ودخول غايةِ رضاه في دار المقام؛ ثمَّ بتعلُّم العربيَّة بمقدار ما يحتاج إليه مثلُك من الطالبين للمراضي الإلهيَّة، وإحياء السُّنن النَّبويَّة؛ ثمَّ تتعلَّم من القرآن الشريف ما تحتاج إليه لإقامة الصَّلوات، وما يتعلَّق بمُراد الله جلَّ جلالُه من تفسير تلك الآيات بعاجلِ الحال، واحفظْه جميعَه بعد ذلك التَّعظيم، والإجلال»[2].

٢-١. أصول سلوك السَّائلين

نتعرَّض في هذا القسم إلى أهمِّ أصول سلوك السَّائلين، ونذكر جملةً من النَّماذج من ذلك في فكر السيِّد العرفانيّ.

٢-١-١. الأصل الأوَّل: محوريَّة الفقه

تعدُّ من جملة الحقائق الدينيَّة مسؤوليَّة الأنبياء (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السلام) في تبليغ الرِّسالة، وإجراء القانون الإلهيّ، وهذه وظيفة جميع الأنبياء ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٨، فلاح السائل: ١٦.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٥.
(٣) البقرة: ٢١٣.

ويلاحظ الصِّلة بين العرفان، والشَّـرائع الإلهيَّة موجود في السُّنن العرفانيَّة في جميع الأديان.

وهـذا ليـس بعيدًا عن فكر السـيِّد؛ فإنَّه في أفكاره جعل من الفقـه محورًا، والعمل بالأحـكام، والأوامر الدينيَّة، ويمكن بيانُ ذلك عبر أنمـوذجٍ من ذلك، وهو أصلٌ من أصول سـلوك السَّـائلين، وبالحقيقة يعدُّ التوجُّه إلى التَّكاليف الإلهيَّـة، ومحوريَّة الفقه، شـأنٌ مـن شـؤون العبوديَّة، وثمَّـة ملاحظاتٌ في هـذا السِّـياق ينبغي الإشـارة إليها، وهي:

نلاحـظ في ضوء آثاره أنَّه التـزم بثلاث مراتب للدِّين[1]: الشريعـة[2]، الطَّريقة[3]، الحقيقـة[4]، كما أنَّـه التزم في كلٍّ من هـذه الثَّلاث؛ الشريعة بالمعنى الخـاصِّ: الأحكام، والأخلاق، والاعتقادات[5]، ويعتقد السـيِّد أنَّ الأولويَّة هـو العمل بالشريعة، وينبغي تطبيقُهـا؛ فالسـيِّد حتَّى في سـفره إلى كربـلاء، ولم يكن هناك مـاءٌ، لم يغـضَّ النَظرَ عن النَّوافل[6].

وفضلًا عن ذلك نقرأ في كتبه وآثاره التفاتة للفقه؛ بل إنَّه في آثاره يستند إلى مصادر الشريعـة، وهذا يدلُّ على التزامه بالشريعة، وهذا مهمٌّ جدًّا في السُّـلوك العمليّ، ويؤيِّده مـا في كتاباته؛ فمثلًا: أ. غياث الورى لسـكَّان الثَّرى، ب. رسـالة في تحقيق المضايقة في

(١) طبعًا وهذا يتطابق مع ما ورد في الدين.
(٢) للشريعة معنَيان: ١. عام، ٢. خاص، إذا كان الشريعة مقسم للشريعة والطريقة والحقيقة، فهذا المعنى الأوَّل، وإذا كانت مقابلة للطريقة وقسيم لها، فالمعنى الثاني.
(٣) الطريقة بمعنى الطريق إلى الله، السـير والسـلوك إلى الله، وهو العرفان العمليّ، وهذا النحو من العرفان نحن بصدد دراسته.
(٤) كما قاله في أسرار العبادات.
(٥) كشف المحجَّة: ١٩٩-٢٠٠
(٦) المصدر نفسه.

فوائـد الصـلاة، ج. فرح المهموم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم، فاسـتند في جملة من تلك المسائل إلى الشَّـرع.

«وأمَّـا ما كان مـن علم الشريعة المُحمَّديَّـة؛ فإنَّنا أخذناه عن نبيِّنـا، وخواصِّ أهل بيتـهﷺ، الذين عرفنـا حقيقة عصمتِهـم، وطهارتهـم، وأمنَّا من غلطهم، وسـهوهم، واختلافهم، وأمرنا الله، ورسـوله بالقبول منهم، والأخذ عنهم؛ فأرشـدونا إلى السَّبيل الصَّالح، وأوردونا على منهل الحقِّ الواضح ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]»[2].

ويعدُّ السـيِّد أنَّ العمل بالشريعة مقرِّبٌ، كما أنَّه يعتقد «الحمد لله المتجلِّي لعباده من أُفق الألباب، المجلي عن مراده بمنطق السنَّة والكِتاب»[3].

ولا شـكَّ في أنَّ الوصـول إلى الله منـوطٌ بالعمـل، وأنَّ العمـل مـشروطٌ بمعرفة المُـراد الإلهـيّ، ومن هنا ينبغي معرفـة مقصود الله تعالى، ومنه العمل بـه؛ فيكون طريقًا إلى الوصول إلى حقيقة الوجود، وهذه المسـألة تُنبئ من أنَّ السـيِّد يعطي مكانةً للشرع، والفقه؛ فالسـيِّد أساسًـا يعدُّ العبوديَّة الشريعة، والشريعة العبوديَّة، وطيّ طريق القُرب هو الاهتمام، والاتِّصال بما جاء بِهِ صاحبُ الشريعة: «وصاحب الشريعةﷺ ما بُعِثَ إلى العباد بمُعاملةٍ، وعبوديَّة لغير معبودٍ»[4].

«وإنَّما جاء محمَّدٌﷺ يدعو إلى المعبود قبل العادة؛ فإيَّاك أن تكون ممَّن خلا قلبُه من ذلِّ العبوديَّة له»[5].

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١، وسورة الجمعة، الآية: ٤.
(٢) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ١/ ٨.
(٣) اللهوف على قتلى الطفوف: ١.
(٤) فلاح السائل: ١١٠
(٥) المصدر نفسه.

ويشير السيِّد إلى أمرَين في معيار الصَّواب، والحقَّانيَّة في أعمال العبد، وأقواله:

أ. العقل في المعقول.

ب. تنبيهات النبيّ صلى الله عليه وآله، والمعصوم عليه السلام في المنقول: «إنَّ الاعتبار في صواب العبد في الأعمال والأقوال على ما وهب الله جلَّ جلالُه من العقل في المعقول، وعلى ما نبَّه صلى الله عليه وآله في المنقول دون من خالف في ذلك على كلِّ حالٍ»[1].

ويشير إلى أنَّ التكاليف المُرادة من العبد على قسمَين: عقليّ، ونقليّ: «اعلمْ أنَّني وجدتُ التكاليف المُرادة من العباد جملتها؛ إمَّا عقليَّة، وإمَّا نقليَّة»[2].

وفي نظر السيِّد أنَّ العُقلاء لم يتَّفقوا على شيءٍ، «فإنَّني ما وجدتُ العقلاء كلَّهم اتَّفقوا أبدًا، لا على البديهيَّة، ولا على الضروريَّة»[3].

ولذا فإنَّه يعتقد رحمه الله: «وأمَّا التكاليف النقليَّة؛ فوجدتُ العقلَ قد دلَّ على أنَّ المرجع فيها إلى الرَّسول صلى الله عليه وآله، وإلى من يجري مجراهُ في عصمته، وكماله، وإن خالف في ذلك من عداهما من كلِّ عبدٍ موجود، أو مفقود، فهل ترى للكثرة أثرًا من المادحين، أو اللائمين إذا كانوا غير محقِّين، وهل للعبد تفرغ وقت يضيِّعه في تحصيل مدح العباد له، وثنائهم عليه، ووزن حركاته وسكناته بحسب رضاهم فيما يقرِّبه إليهم، أو يقرِّبهم إليه، مع ما كلِّف العبد من دوام مراقبة مالك الأوَّلين والآخرين، المطَّلع على أسرار العالمين، ومع ما كلِّف في سائر الحركات والسَّكنات من العمل بمراسم وآداب سيِّد المُرسلين»[4].

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١١٦.
(٢) المصدر نفسه: ٣٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ٣٠٤.
(٤) المصدر نفسه: ٣٠٣.

ثمَّ يقول في هذا السِّياق: «فاعلمْ أنَّ من ضيَّع حدود الشريعة، وحرمتها، وهوَّن بها، وقطع موصولها، ووصل مقطوعها، واستخفَّ بها، وآثر الدُّنيا عليها، وعليها صغر؛ فإنَّه يكون عند النبيّ صلى الله عليه وآله، وعليّ عليه السلام، وعند ذريَّتهما الطَّاهرين أعظم ممَّن يكون قد قتل أولادهم، أو كسر حرمتَهم، أو هوَّن بهم، أو قطَّع أعضاءهم، أو صغَّر منزلتَهم؛ لأنَّك قد عرفتَ أنَّ حرمةَ الدِّين عندهم، وحرمة سلطان المعاد أعزّ وأهمّ من حُرمة الأولاد؛ فإذا قال العبدُ المسكين، بعد تهوينه بشيءٍ من أمور الدِّين: أنا أحبُّ النبيَّ، وعليًّا، وهما يحبَّانِّي، وتعلَّق بهذه الأماني، ومال إلى التَّواني؛ فينبغي أن يعرف أنَّه مبطِلٌ في دعواه، وأنَّهم (صلَّى الله عليهما) إلى عداوته أقرب من محبَّته»[1].

فضلًا عن هذا؛ فإنَّه يوصي ولده محمَّدًا: «فتعلَّم منهُ يا ولدي ما يكون شاهده، وعاضده الكتاب، والسنَّة، وكلام الفُصحاء، والعلماء من سلفِك الذين هم الدُّروع، والجنَّة»[2].

ويشير مكان المصلِّي، والدَّاعي، وتأثيره، وما يتعلَّق به: «وإن كان حال هذا العبدِ المكلَّف قويًّا في الإمكان إلى أنَّه لا يختلف إخلاصه، واختصاصه بمكانٍ دون مكانٍ؛ فالأفضل له اتِّباع الشرع في تفضيل أماكن الصلاة، وتفضيل محالِّ الدَّعوات، وأفضلها بيوت الله تعالى، وجلَّ جلالُه، ومساجده الخاصَّة لعبادته، وأفضل المساجد مسجد الحرام، ومسجد المدينة»[3].

وذكر في كتابه (فلاح السائل ونجاح المسائل)، فروعًا فيما يتعلَّق بالطَّهارة، والصَّلاة: «فيكون في امتناعه، وإهماله لهذه الطّهَارة، والصَّلاة، قد رمى نفسه في

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٤٤٥.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩١.
(٣) فلاح السائل: ٩٠.

الهلكات، واستخفَّ بصاحب الشريعة؛ بل أقدم على من أرسله جلَّ جلالُه بأمور فظيعة؛ لأنَّه إذا كان يريد العبادةَ لأجله سبحانَه؛ فلا يخالفه في تدبيره، وقوله، وإيَّاه»[1].

ونموذج آخر في هذا السِّياق دعائه لولده بتعلُّم الفقه: «وأريد من الله جلَّ جلاله أن يلهمَك، ومنك أن تقبل من إلهامه، وأن تتعلَّم الفقهَ الذي فيه السَّبيل إلى معرفة الأحكام الشرعيَّة، وإحياء سنَّة جدِّك المحمَّديَّة، ويكون قصدك بذلك امتثال أمر الله جلَّ جلالُه في التَّعليم، وسلوك الصِّراط المُستقيم»[2].

«حفظ الله عزَّ وجلَّ فيك عنايتَه بآبائك الطَّاهرين، وسلفك الصَّالحين، وسلكَ بهم كاملَ سبيلهم القويِّ المكين»[3].

«أراك الله جلَّ جلالُه بطرق العقل، والنقل، والخير، ما يخاف عليك ممَّا تحتاج إلى علمِه كما حضر، وأتاك من نوره ما ترى ما استتر به كما ظهر»[4].

«زكَّاك الله جلَّ جلالُه بتطهيرك من الذُّنوب، والعيوب، وتجميلك بأداء الواجب، والمندوب»[5].

(١) لا بأس أن أنقل تمام النصِّ؛ لما فيه من فائدة: «فيكون في امتناعه وإهماله لهذه الطهارة والصلاة قد رمى نفسه في الهلكات، واستخفَّ بصاحب الشريعة، بل أقدم على من أرسلهُ جلَّ جلالُه بأمور فظيعة؛ لأنَّه إذا كان يريد العبادة لأجله سبحانه، فلا يخالفه في تدبيره وقوله وإيَّاه، وما قد دخل فيه كثير من الناس من إهمال الطهارة والصلاة بالتوهُّمات لنجاسة الماء على سبيل الوسواس، فإنَّ ذلك مرض في الأبدان، أو سقم في العقائد والأديان، وقصورٌ في معرفتهم بالرحمن». فلاح السائل: ٥١. (م).
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٤.
(٣) المصدر نفسه: ١٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ٢٧٠.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٨.

«الحقُّ سبيلٌ واضحٌ واحدٌ قد دلَّ القرآن، وجدُّك محمَّدٌ صلى الله عليه وآله إليه، ومن خرج عنه؛ فإلى غضب الله جلَّ جلالُه، وسخطه، وهوانه، ونيرانه، والفضيحة العظمى إذا قدِمَ عليه»[1].

٢-٢-١. الأصل الثّاني: الدُّعاء

يعدُّ النَّموذج الثاني من أصول سلوك السَّائلين في فكر السيِّد ابن طاووس، هو الدُّعاء؛ فالدُّعاء في نظر السيِّد أهمُّ، وأرفع من الذِّكر، مع ما لهُ من أهميَّةٍ أشار لها في محلِّه.

ويمكن عدُّ هذه الأهميَّة جزءًا من نظام العرفان الشيعيّ.

وتظهر أهميَّة هذا الأصل في نظر السيِّد عبرَ آثاره، وأسفاره؛ فهو يعدُّ الدُّعاءَ للسَّالكين منهج، وسيرة النبيّ، والأئمّة الأطهار عليهم السلام: «اعلمْ أنَّ النَّبيَّ، والأئمَّة عليهم السلام سلكوا النَّاس إلى السَّعادات، والدَّعوات»[2].

يشير السيِّد إلى فوائد المُناجاة، والدُّعاء: «رأيتُ فوائدَ الخلوة، والمُناجاة، وما فيها من مرادِه لعبده من العزِّ، والجاه، والظَّفر بالنَّجاة، والسَّعادة في الحياة، وبعد الوفاة»[3].

ويعدُّ كتبَ الأدعية من الذَّخائر النَّفيسة: «وهيأ الله جلَّ جلالُه عندي عدَّة مجلَّدات في الدَّعوات، أكثر من ستِّين مجلَّدًا؛ فالله في حفظها، والحفظ من أدعيتها؛ فإنَّها من الذَّخائر التي يتنافس عليها العارفون في حياطتها..»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٢.
(٢) الأمان من أخطار الأسفار و الأزمان: ١١٠.
(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٦.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٣١.

ويعتقد السيِّد: يكون إلقاءً في السُّلوك بقدر تحمُّل الأفراد، وما تقتضيه قابليَّتهم: «اعلم أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام سلكُوا النَّاس إلى السَّعاداتِ، والدَّعوات على قدر ما تَحتَمِله حالُهم في ضيق الأوقات، والتَّخفيف في العبادات»[1].

ويعتقد أنَّ الإنسان محتاجٌ في دعائه إلى الإذن من النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، وأهل البيت عليهم السلام: «ونحن نقول بحسب ما يحتاج إليه للإذن منهم عليهم السلام للإنسان في الدُّعاء بما أفاض الله تعالى عليه؛ فنقول، وبعضه من المنقول»[2].

سنتحدَّث أكثر عن هذا الموضوع لاحقًا، بعُنوان: سلوك دعاء السَّائلين.

٢-٣-١. الأصل الثالث: التوجُّه إلى أسرار العبادات

تعدُّ أسرار العبادات من المسائل المهمَّة في الأوساط العرفانيَّة، وتعدُّ جزءًا من مسائل الطَّريقة، وعلم العرفان العمليّ، وهي شأنٌ من شؤون العرفان، والعُرفاء خصوصًا[3].

تعتقد هذه الطَّائفة أنَّ التَّعاليم الدينيَّة مع ما لها من ظاهرٍ من لفظٍ، ومعنًى ظاهريّ= الشريعة، لها بُعد آخر يتضمَّن الحقائق والباطن= الطريقة، وبنظر هؤلاء هذا المهمُّ في

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١١٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) لاحظ في هذه المسألة على سبيل المثال: محي الدين بن عربّي في الفتوحات المكِّيَّة، ومجموعة رسائله وفصوص الحكم، ومحمَّد بن حمزة العناري في مصباح الأنس، وأبو حامد الغزَّاليّ في إحياء علوم الدين، وعلاء الدولة السمنانيّ في مصنَّفاته الفارسيَّة، وعبد الرزاق الكيلانيّ في شرحه الفارسيّ مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، والسيِّد حيدر الآمليّ في تفسيره المحيط الأعظم والبحر الخضم، والميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ في أسرار الصلاة والمراقبات، والسيِّد الخمينيّ في سرِّ الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثًا في شرح حديث جنود العقل والجهل، وشرح دعاء السحر.

جعل الأحكام من قبل الشَّارع المُقدَّس[١]: «إليه جلَّ جلالُه الاختيار فيما تعبَّد به من العبادات»[٢].

ومن هنا يتبيَّن ضرورة الالتفات إلى الأسرار الباطنيَّة للعبادات، وفي هذا الجانب ذكروا، وكتبوا، وهكذا سجَّل السيِّد: «اعلم أيُّها الأخُ أيَّدك الله، وإيَّانا بروح منه، أنَّك إذا نظرتَ أسرار النَّواميس الإلهيَّة، وتأمَّلت السُّننَ الشرعيَّة، و تبيَّنتَ أغراض واضعي النَّواميس، كان هذا الذي ذكرتُ لك»[٣].

وأشار علماء الدِّين الكبار إلى مسألة أسرار الدُّعاء، والعبادة في مصنَّفاتهم، ولهم بياناتٌ متعدِّدة في هذا المجال.

والباعث لهم على ذلك أنَّ كثيرًا من تعاليم الشريعة، وبرامجها بالمعنى العامِّ لها جنبة باطنيَّة عباديَّة، تكمن وراء صورتها الظاهريَّة.

وتأثر ابن طاووس بالعُرفاء في هذه المسألة، وهذا يظهر عبرَ ما كتبه من الأسرار[٤] في الأدعيَّة، والعبادات، ومثالًا على ذلك ما ذكرهُ في أسرار الأذان، والإقامة[٥]، والرُّكوع[٦]، والسُّجود[٧]، وغير ذلك[٨].

(١) فلاح السائل: ١٢٤.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٩.
(٣) فرج المهموم: ١١٦.
(٤) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢-٢٠٠، ونهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨، وأيضًا ما كتبه في فلاح السائل من أسرار الصلاة، وغيرها.
(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٠٨.
(٦) لاحظ: المصدر نفسه: ١١٠.
(٧) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.
(٨) المصدر نفسه: ١٩٧

وعرض السيِّد في كتابه (غياث سلطان الورى لسكَّان الثَّرى)، لطائف من شأنها التأمُّل فيما يخصُّ الصَّلاة، وما ألمح إليه من معانٍ فيها قرَّة عينٍ للعارفين[١].

ونطالع في هذا الكتاب أيضًا المعاني الباطنيَّة، والأسرار للأذان، وهو قريبٌ لما ذكره في مفتاح الفلاح؛ فراجِعْ[٢].

وذكر في (كشف المحجَّة لثمرة المهجة) بعُنوان: العبادات كلمات نافعات لأهل السَّعادات[٣]، هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحجّ، والجهاد، طرفًا من أسرارها لولده.

ووضَّح لابنه فيما وضَّحه قدس سره العمق القلبيّ، والعقليّ للصِّيام، وما له من أسرار باطنيَّة[٤].

واقتفى طريقة العرفاء في الفلسفة الباطنيَّة في نطاق العبادات[٥].

ولاحظ وجود البُعد العرفانيّ في عبادات وأدعيَّة آل الله عليهم السلام؛ فسعى قدس سره في بثِّها في مصنَّفاته، وكذا سار على خُطاه من جاء من بعده من العُرفاء[٦].

ويمكن عدُّ أهمِّ أعماله العرفانيَّة ما صنَّفه من كتاب في هذا المضمار، وهو (أسرار الصَّلاة وأنوار الدَّعوات)، إذ كتبه بأسلوبٍ خاصٍّ، وطريقةٍ مخصوصة.

(١) انظر: فلاح السائل: ١٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ١١٤.
(٣) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.
(٤) راجع: المصدر نفسه: ٢٠٠.
(٥) فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٢٥.
(٦) مثلًا على ذلك انظر: أسرار الصلاة (للملكيّ التبريزيّ)، والمراقبات له أيضًا، وسرُّ الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثا، وشرح دعاء السَّحر، وشرح حديث جنود العقل (للسيِّد الخمينيّ).

ومـن الواضح أنَّ النُّصـوص العباديَّة هي عاملٌ أسـاسٌ، وباعثٌ ضروريّ لتغيير مـا تلـوَّث من الباطن، وكان بشـكلٍ عـامٍّ يتعاطى مع كتاب مصبـاح الشريعة بنحوٍ جليٍّ.

وينقل حديثًا في هذا المضمار: «عن الإمام الصَّادق: فإنَّه كتابٌ لطيفٌ شريفٌ في التَّعريف بالتَّسليك إلى الله جلَّ جلالُه، والإقبال عليه، والظَّفَر بالأسرار التي اشتملَتْ عليه»[1].

ويمكـن الإشـارة إلى جملـةٍ مـن النـكات في أسرار العبـادات مـن وجهـة نظـر السيِّد:

أ. مكانة أسرار العِبادات:

ولج السيِّد لِـمَا وراء الظَّاهر، وأعرب عن وجود أسرارٍ للعبادة، وبعض منها كُشفٌ من زاويةٍ خاصَّةٍ.

وليعلـم أنَّ للعبادة، والأدعيَّة الدينيَّة حقائقَ متعـدِّدة؛ فهي معبِّرةٌ من قلبِ وروح النبـيّ، وأهل بيته، ومنه يظهر ما فيها من أسرارٍ تلوحُ ما بين السُّـطور للمُتتبّع؛ فليتفطّنْ.

وينبِّـه السـيَّد للحصـول عـلى تلـك اللئـالي، والأسرار، يفـترض بالطَّالـب لـهـا مـن مُقدِّمـاتٍ، وإلَّا فهـي للخـواصِّ، وفـي هـذا المِضـمار يقـول: «إنَّ أسـرار خـواصِّ الله جـلَّ جلالُـه، ونوَّابـه، مـا يتطلَّـع كلُّ أحـدٍ عـلى حقيقـةِ معناه»[2].

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١-٩٢.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٢٠٠.

ومن هنا لا يمكن أن يكون كلُّ شخصٍ مُستودعًا للأسرار، إلَّا المطَّلع على الغايات، وبتعبيرِ السيِّد: «فإنَّ أسرار العبادات لا يعلمها جميعًا إلَّا المطَّلع على الغايات [الغائبات]، وإليه جلَّ جلالُه الاختيار فيما تعبَّد به من العبادات»(١).

وفي نصٍّ آخر: «أمَّا تعيين وجه اختيار الله جلَّ جلالُه من العبد أن تكون خدمتُه له بجنسٍ من الطَّاعات، وعلى وجهٍ متعيَّن في بعض الأوقات؛ فهذا طريقة عن العالم بالغائبات على لسان رسله (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السلام)، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»(٢).

وحظيتْ مسألة أسرار العبادات لدى العُرفاء بأهميَّةٍ خاصَّةٍ؛ ففي نظرهم أدعيَّة، وعبادات الأئمَّة عليهم السلام مثارٌ للحيرة، والتعجُّب؛ لما فيها من لطائف المعارف الحقَّة الإلهيَّة، وفي هذا المضمار إنَّ كشف الأسرار مبدأُ المعارف؛ وتتجلَّى أعظم الأسرار، وأدقِّها(٣) ما كان بين الحقِّ المطلق، وأحبَّائه، وأصفيائه عليهم السلام، وأيضًا هذه الأسرار تفسح لإطلالةٍ على المعرفة الغيبيَّة.

واتَّبع السيِّد العارفُ الخُمينيّ قدس سره أثر ابن طاووس في كيفيَّة صدور الأدعيَّة من الأولياء المُخلَصين، يقول السيِّد الخمينيّ: «ونفخر أنَّ الأئمَّة المَعصومين عليهم السلام بدءًا بعليّ ابن أبي طالب، وانتهاءً بمُنقذ البشريَّة، حضرة المهديّ صاحب الزَّمان، الحيّ النَّاظر على الأمور بقُدرة الله القادر (عليهم آلاف التحيَّات والسَّلام) هم أئمَّتنا، ونفخرُ

(١) إقبال الأعمال: ٢/ ٢١.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤.
(٣) يقول السيِّد الخمينيّ: «ليت تطوَّع أحدهم لترجمة الأدعية الواردة عن الأئمَّة عليهم السلام وشرحها؛ فأمثال هذه الأدعية بأمسِّ الحاجة للشرح والتوضيح. ليت تطوَّع بعض العرفاء الصادقين لشرح هذه الأدعية للناس، التي فيها كلُّ شيء، فضلًا عن الدعاء.. انظروا أنتم إلى الأدعية الواردة عن الإمام السجَّاد، صحيح أنَّه دعاء، ولكن فيه كلُّ شيء من المعنويَّات». صحيفة الإمام: ٢١/ ١٢.

بـأنَّ الأدعية الخلَّاقة التي تسـمَّى بالقرآن (الصَّاعد)، هي مـن أئمَّتنا المعصومين، نفخر بمُناجاة أئمَّتنا الشعبانيَّة، ودعاء الحسين بن عليّ عليه السلام في عرفة، والصَّحيفة السجَّاديَّة التي هـي زبـورُ آل محمَّد، والصَّحيفة الفاطميَّة هي الكتاب الملهَـم من قبل الله تعالى للزَّهراء المرضيَّة عليها السلام»[1].

ومِمَّـا ينبغـي التَّنبيه له: أنَّ أسـاس نظريَّـة العُرفاء في أسرار العبـادات هو الأدعية، والعبادات، والإشارات للنبيّ، وأهل بيته عليهم السلام.

ويـرى قدس سره أنَّ الباب لـلأسرار مؤصدٌ، ولا يدخلـه إلَّا من اختـاره الله تعالى، ويتمُّ ذلـك إمَّا عن طريق النبـيّ صلى الله عليه وآله، أو الملائكة، أو الأولياء عليهم السلام: «.. وأمَّا تعيين وجه اختيار الله جـلَّ جلالُـه من العبد أن تكـون خدمته له بجنسٍ من الطَّاعـات، وعلى وجهٍ متعيَّنٍ في بعـض الأوقات؛ فهـذا طريقه عن العالم بالغائبات على لسـان رسـلِه (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السَّـلام)، وعلى لسـان ملائكته، ومن شاءَ من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»[2].

ويعُدُّ السـيِّد الخمينيّ أدعيـة المعصومين عليهم السلام بابًا للمعارف، يقـول في هذا المجال: «ينبغـي نيل المعارف مـن الأدعية، ولا يمكن نيلُها عبر الأخبـار التي كان المُخاطب بها عموم النَّاس.

ويُفترض تعلُّم المعارف من الأدعية؛ لأنَّ طرفَ الخِطاب فيها الحقُّ سـبحانَه؛ ولذا نرى جملَ الفُصوص مع معنى الأدعية مطابق..»[3].

(١) صحيفة الإمام الخمينيّ: ٢١/ ٣٥٨ و١٩١.
(٢) الإقبال: ٦٥.
(٣) لاحـظ: تقريرات الفلسـفة، دروس السـيِّد الخمينيّ، بقلم: عبد الغنـي الأردبيليّ: ١/ ١٨٣. (فارسيّ).

ويعتقد السيِّد أنَّ الله تعالى يزيح لأوليائه السِّتارَ عن الأسرار بمنِّهِ، وفضلِه، ويشهد على هذا النَّقل والعقل: «الله جلَّ جلالُه الذي عطف على أوليائه، وخاصَّته، ولطف لهم بما أراهم من أسرار ملكوتِه، ومملكتِه، وكشف الحجب بينهم، وبين عظمة ربوبيَّته؛ فأشرقت على سرائر قلوبهم شموس إقباله، وتحقَّقت بصائرهم بما شاء من مقدَّسِ جلالِه؛ فعصمَهم بتلك الهيبة أن يقعَ في حضرته الاشتغال عنه منهم، واشتغلوا بمراقبتِه جلَّ جلالُه عنهم»[1].

«ذلك، ويشهد المعقول، والمنقول أنَّ الأنبياء أعرفُ بقسمة الأموال، والأحكام من رعاياهم، وخاصَّة نبيُّهم؛ فإنَّ كتابهم يتضمَّن: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2]»[3].

«أقول: واعلم أنَّ إلقاء هذه الأسرار في السَّنة إلى وليِّ الأمر ما هو من الوحي؛ لأنَّ الوحي انقطع بوفاة النبيّ ﷺ، وإنَّما هو بوجهٍ من وجوه التَّعريف، يعرفه من يلقى إليه ﷺ، وقد قال جلَّ جلالُه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[5]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[6]، ولكلٍّ منها تأويلٌ غير الوحي النبويّ»[7].

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٠٩.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.
(٣) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٤٦٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٥) سورة القصص، الآية: ٧.
(٦) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٧) الإقبال: ٦٥.

«أنَّه صدر عن النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله المؤيَّد بالألطاف، والوحي، بالعناية الإلهيَّة، والاطّلاع على الأسرار الربَّانيَّة، والمصالح الدينيَّة، والدُّنيويَّة»(١).

ويعتقد السيِّد أنَّ ما ورد في القُنوتات عنهم (سلام الله عليهم) إشاراتٌ لذوي الأبصار: «واعلمْ أنَّ في هذه القُنوتات إشاراتٍ منهم عليهم السلام إلى ما كانتْ حياتهم عليه في تلك الأوقات، وإلى معرفتهم بما يتجدَّد بعدهم من تأخير دولتِهم، وإظهار التألُّم من دفعهم من إمامتِهم، وعن فرض طاعتهم، وفيها من الأسرار ما قد دلُّوا عليه كثيرًا من ذوي الأبصار»(٢).

ويعلِّق عند حديثه عن دعاء الإمام الجواد عليه السلام؛ فيقول: «إنَّه من أسرار الله عند خاصَّته»(٣).

ويرى قدس سره أنَّ الباب للأسرار مؤصدٌ، ولا يدخله إلَّا من اختاره الله تعالى، ويتمُّ ذلك إمَّا عن طريق النبيّ صلى الله عليه وآله، أو الملائكة، أو الأولياء عليهم السلام «فهذا طريقة عن العالم بالغائبات على لسان رسله (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليهم السَّلام)، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»(٤).

ومذهبه في بيان أسرار العباداتِ، وصدور البرامج من العُرفاء، وما يتعلَّق بذلك لهُ إشارة فيما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، قال قدس سره: «الذي رويناه عن سلفائنا الطَّاهرين العارفين بتأويل القرآن، وأسرار ربِّ العالمين»(٥).

(١) الطرائف: ٢/ ٤٥١.
(٢) مهج الدعوات: ٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ٢٥٨.
(٤) إقبال الأعمال: ١/ ٤.
(٥) سعد السعود: ١٣٠.

ويقول في أسرار الأذان، والإقامة: «هما مسنونانِ، وفيهما أسرار»[1].

وفي موضعٍ آخر: «وإذ قد ذكرنا بعض ما روينا من أسرار الأذان، والإقامة»[2].

ويُلاحظ على مسلك ابن طاووس في بيان أسرار العبادات، والأدعية لم يتقوَّل من عنديَّاته، واستند فيما أورده على القرآن الكريم، والروايات، والأدعية، وعبادة المعصومين عليهم السلام، ومنه نتجتِ البرامج العرفانيَّة.

يقول السيِّد في هذا الصَّدد: «لقد وجدتُ من دعوات النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام في الاستخارات ما يُفهم منه قوَّة العناية منه عليه السلام، ومنهم صلوات الله عليهم بها، وتعظيمهم لها، حتَّى لقد وجدت أنَّها من جملة أسرار الله عزَّ وجلَّ التي أسرَّها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله لـمَّا أُسري به إلى السَّماء، وأنَّها من أهمِّ المهامِّ، ووجدت أنَّ آخر مرسوم خرج عن مولانا المهديّ عليه السلام، وعلى آبائه الطَّاهرين، دعاء الاستخارة، وهذا حجَّةٌ بالغة عند العارفين»[3].

ب. الشُّروط:

يشترط قدس سره شرطَين للإفصاح عن أسرار العبادات للآخرين، الشَّرط الأوَّل: يتعلَّق بالمتكلِّم، وهو أن يكون مأذونًا بذلك، والثَّاني: بالسَّامع، وهو أن يكون من أهل الاستقامة، والتَّوفيق، وثمَّة وجود مصلحة لبيان الأسرار له.

وإن شاء الله سنبحث هنا الشَّرطين.

يعتقد قدس سره ما موجود من تشابهٍ في اللفظِ، والمعنى في بعض الأدعية يضمُّ في طيَّاته أسرارًا، وما يذكره الخواصِّ؛ فبإذن الله عزَّ وجلَّ، أو الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله في زمانٍ دون زمان،

(١) فلاح السائل: ١٥١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) فتح الابواب: ١٩٢.

وإنسانٍ دون إنسان، «وربَّما جاء في بعض الدَّعوات المذكورة مشابهة لفظ أو معنى لأجل ما عرفته من الأسرار المذكورة التي يذكرها خواصِّه عنه جلَّ جلالُه، وبإذنه، وإذن رسوله صلى الله عليه وآله في زمانٍ دون زمانٍ، ولإنسانٍ دون إنسان»[1].

وأومأ السيِّد في مصنَّفاته أنَّ لديه إذنٌ في بيان بعض الأسرار، وأشار إلى ذلك عندما تحدَّث عن أسرار الصَّلاة، والدُّعاء، ونحن أشرنا فيما سبق تحت عنوان (الإذن)، ونظر السيِّد فيه، كما ألمحنا لما هو موجودٌ في العرفان النظريّ، والعمليّ.

ولا ينبغي الإفصاحُ أيضًا عن أسرار العبادة لأيِّ أحد، وإنَّما تُعطى لأهل الاستقامة، «فلنذكر ما نريد ذكره ممَّا يحتاج إليه أهل الاستقامة»[2]؛ فيذكر بعض النُّكات للعُرفاء حول الأذان، والإقامة؛ فيقول: «ويقول كلُّ كلمةٍ منهما بالصِّدق، وموافقة السَّريرة العلانيَّة على صفة أهل الاستقامة»[3].

ويعتقد أنَّه لا بدَّ أن يُلاحظ المتحدِّث بالأسرار أهليَّة السامع، وجدارته، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، «فإن أدركتَ يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك»[4].

ومن اللافت للنَّظر أنَّه مع كون السَّامع مستحقًّا لتلقِّي الأسرار، إلَّا أنَّه قدس سره يعلِّق الإفصاح عنها بحسب المصلحة، يقول: «نذكر بعضها بحسب المصلحة»[5]، «أقول: ولعلَّ هذه الرواية تختصُّ بوقت دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولإنسان دون إنسانٍ»[6].

(١) فلاح السائل: ١٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٥١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٣.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه: ١٠٤.

ويعتقد أيضًا أنَّ تعليم الأدعية بمقدار الأفراد، وقابليَّتهم[1].

مع أنَّ ابن طاووس لم يُعرِّف أهل الاستقامة بطريقةٍ واضحةٍ، ولكن يمكن أن نلمس الميزان، والمعيار لهم من آثار الأئمَّة عليهم السلام. يقول في هذا السِّياق: «ثمَّ يسلك به سبيلَ معرفة النبوَّة، والإمامة، على قاعدة تعريف النبيّ، والأئمَّة عليهم السلام، ومَن سلك سبيلَهم من أهل الاستقامة؛ فهذا كان كافيًا لمن يريد تحصيل السَّلامة، وسعادة الدُّنيا، ويوم القيامة»[2].

وممَّا ينبغي الالتفات له: أنَّ الأشخاص الذين يمتلكون أسرار العبادة، لا بدَّ لهم من إذنٍ لنقلها للغير، ويفترض أن يكونوا من أهل الاستقامة، والتَّوفيق، وهناك مصلحةٌ من الأدلَّاء لهم بالأسرار، وإلَّا فلا يجوز التفوُّه بها؛ فلا تغفل.

ج. سرُّ علاقة الزَّمان في العبادات:

بيَّن ابن طاووس في ما كتبه أهميَّة المُناسبات الزمانيَّة في العبادات ورمزيَّتها، ومعه سيكون محوريَّة هذه الفقرة العلاقات الزمانيَّة، وسرّها عند ابن طاووس.

لـمَّا كان ملتفتًا لأهميَّة الزَّمان في الأدعية، كما ورد من أسرارٍ في الرِّوايات؛ فكانتْ تصانيفُه على هذا الضَّوء، فنراها مقسَّمةً إلى سنويَّةٍ، وشهريَّةٍ، وأسبوعيَّةٍ، ويوميَّةٍ، «وكانوا قدوةً لمن اقتدى بآثارهم، واهتدى بأنوارهم»[3]، ومن هنا استند من أنَّ هناك علاقةً بين الزَّمان، والأدعية، بسيرة المعصومين عليهم السلام، قال: «أمَّا تعيين وجه اختيار الله جلَّ جلالُه من العبد أن تكون خدمتُه له بجنسٍ من الطَّاعات، وعلى وجه متعيَّن في بعض الأوقات؛ فهذه طريقةٌ عن العالم بالغائبات على لسان رسله (صلَّى الله على

(١) فلاح السائل: ١٥١.
(٢) الإقبال: ١٤.
(٣) إقبال الأعمال: ٢/ ٣٧٨.

نبيِّنا وآله، وعليهم السَّلام)، وعلى لسان ملائكتِه، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»[1].

«وسوف نذكر من طريق الأخبار طرقًا [طرفًا] من العبادات، والأسرار في الليل، والنَّهار المُقتضية لنعيم دار القرار، فلا تكُنْ عن الخير نوَّامًا، ولا لنفسك يوم القيامة لوَّامًا»[2].

«إنَّما نذكر هاهنا روايةً تتضمَّن سببَ تعيين أوقات الفرائض؛ لينكشفَ بذلك وجهُه، وسرُّه»[3].

مرَّ علينا من أنَّ السيِّد، بعنايةٍ من الله تعالى، كان يعلم أوائل الشُّهور[4]، وكما أشرنا من أنَّ السيِّد كان مأذونًا بإنشاء الدُّعاء؛ فالسيِّد لهُ دعاءٌ من إنشائه لمُشاهدة هلال شهر ذي القَعدة، وجعل هذا الشَّهر فيه من الأسرار الإلهيَّة: «اللهمَّ إنَّ هذا شهر ذي القعدة من الأشهر التي أمرْتَ بتعظيمِها، وجعلتَ فيها من أسرار العبادات ما شهِدَ بتكريمِها»[5].

نلاحظُ أنَّ السيِّد يُكثر في كتابيه (الإقبال)، و(فلاح السَّائل) من أهميَّة الزمانيَّة لأسرار العِبادات، ويوصي الشَّخص القاصد للسَّفر أن يحمل معه كتابًا في أسفارِه الأسرار المودعة في ساعات الليل، والنَّهار: «ينبغي أن يحملَ معه لنهاره في أسفاره كتاب الأسرار المودعة في ساعات الليل، والنَّهار؛ فإنَّ فيه ما يحتاج إليه لدفع الأخطار»[6].

(١) إقبال الأعمال: ١١٠.
(٢) إقبال الأعمال: ٢/ ٦٢٦.
(٣) فلاح السائل: ١٢٥.
(٤) لاحظ: إقبال الأعمال: ١٥.
(٥) إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٧.
(٦) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩٠.

ويشير السيِّد إلى أنَّ كلَّ وقتٍ له سرٌّ في القبول؛ فهي أسرار الله، ولا تُعرف إلَّا بالمنقول: «فإنَّ لأوقات القبول أسرارًا لله جلَّ جلالُه، ما تُعرف إلَّا بالمنقول»(١).

على حين يعتقد الشَّيخ حسن زاده الآمليّ في هذا السِّياق: «وبعض هذه الأسرار تُعرف أيضًا بالمعقول؛ فتُدركُ بإحساسٍ خفيٍّ، غريبٍ»(٢).

يقول الميرزا جواد التبريزيّ: «وإن أشكل عليك، وداع الزَّمان الذي ليس من قبيل الحيوان الشَّاعر للصُّحبة، والتَّوديع؛ فانظرْ إلى جواب السيِّد ﷺ في الإقبال، وإن لم تقنع به؛ فاستمع لِمَا يُتلى عليك: فاعلم أنَّ الزَّمان، والمكان، وسائر الأشياء غير الحيوان، وإن كانوا في عالمهم هذا، وبصُورِهم هذهِ غير شاعرين، إلَّا أنَّ كلَّها في بعض العوالم العالية لها حياةٌ، وشعورٌ، ومنطق وبيان، وحبٌّ، وبغض، كما تكشف عن ذلك الأخبار الكثيرة الواردة في أحوال عوالم البرزخ والقيامة، ومُكاشفات أهل الكشف؛ فإنَّ لكلِّ ما يوجد في هذا العالم وجودًا في عوالم أخرى هي سابقة على هذا العالم في الوجود، وللموجودات في كلِّ عالم صورًا، وأحكامًا مخصوصةً بعالمها، يختلف مع الصُّور، والأحكام الكائنة في غير هذا العالم»(٣).

إنَّ السيِّد كتب عن بعض أسرار الزَّمان؛ إذ يقول: «اعلم رحمَك الله أنَّ كلَّ وقتٍ اختاره [تختاره] الله جلَّ جلالُه لدعوة عباده إلى حبِّه، وقُربه، وإسعاده، وإنجاده، وإرفاده؛ فإنَّ ذلك من أوقات إقبال العبد وإعياده؛ حيثُ ارتضاه الله جلَّ جلالُه الموقوف [للوفود] بشريف بابِه، وشرَّفه بما لم يكن في حسابِه»(٤).

(١) إقبال الأعمال: ٢/ ٣٧٢.
(٢) نور على نور في الذِّكر والذَّاكر والمذكور: ٩٧.
(٣) المراقبات: ٢٦٢.
(٤) إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٩.

فالسيِّد يشير لبعض المُناسبات الزَّمانيَّة، مثل ليلة الخامس والعشرين من ذي الحجَّة، بعد أن يذكر جملةً من الأعمال يأتي بها في هذه الليلة: «ودخول فيما فتحه الله جلَّ جلالُه في تلك الليلة من الأنوار، والأسرار»[1].

ويعتقد في هذا السِّياق: «اعلم أنَّ أوقات العباداتِ، والمُراد منها لله جلَّ جلالُه في تلك الأوقات مرجعه إلى العالم بمصالح العباد، وما يكون أنفع لهم في الدُّنيا، والمَعاد»[2].

باعتقاده هناك أوقاتٌ معيَّنة مهمَّة، مثلًا العشرة الأولى من شهر ذي الحجَّة: «اعلم أنَّ تعيين الله جلَّ جلالُه على أوقات معيَّنة [معينات] تذكر [نذكر] فيها جلَّ جلالُه دون ما لا يجري مجراها من الأوقات يقتضي ذلك تعظيمها، ومصاحبتها بذكره الشريف بالعقول، والقلوب، وأن لا يخليها العبد من إذكار نفسه بأنَّها حاضرةٌ بين يدي علَّام الغيوب، وأن يلزمها المراقبة التامَّة في حركاته، وسكناته، ويطهِّرها من دنس غفلاتهِ؛ حيث قد اختارها الله جلَّ جلالُه لذكرِه، وجعلها محلًّا لخزانة سرِّه، وأهلًا لتشريفها بتعظيم قدرهِ، ومنزلًا لإطلاق برِّه، ومنهلًا للتلذُّذ بكاسات شكرِه، وهذا عشر ذي الحجَّة من جملة تلك الأوقات، قال الله جلَّ جلالُه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾[3]»[4].

«معناه أنَّ كلَّ وقتٍ اختصَّ الله جل جلالُه بخدْمته به، وجعله محلًّا لبسط فراش رحمته، وإطلاق المواهب لأهل مسألته للابتداء لمن لم يسأله من خليقته؛ فكلُّ من أخرج من ذلك الوقت شيئًا في غير العبادة، وطلب السَّعادة؛ فكأنَّه

(١) إقبال الأعمال: ٢/ ٣٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٥٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٣١٦.

قـد سرق الوقـتَ مـن مـولاه، وهتـك الحرمـةَ، وخـرج عـن رضـاه، ونازعَـه في إرادته»[1].

وذكر السـيِّد أنَّ الشُّهور كمراحل الإنسـان، وتدرُّجه: «اعلمْ أنَّ هذه الشُّهور التي يأتي ذِكر عبادتها، وشرح خيراتها، هي كالمراحل، والمَنازل من حيثُ خرج الإنسـان من بطـن أمِّـه إلى أن يصلَ إلى انقضاء أمر الدُّنيا الزَّائل، وفي كلِّ منزلٍ منها مُذ ارتضاه مولاه لتشريفه بتكليفِه ذخائر، وكنوز، وجواهر»[2].

«اعلـم أنَّنا كنَّـا ذكرنا في أوائـل هذا الجزء، وبعـد إثبات أبواب هـذا الكتاب، أنَّ الشُّـهور كالمَراحل إلى الموت، وما بعده من المنازل، وأنَّ كلَّ منزلٍ ينزله العبد في دنياه في شهوره، وأيَّامه؛ فينبغي أن يكون محلّه على قدر ما يتفضَّل الله جلَّ جلالُه فيه من إكرامه، وإنعامه»[3].

(١) ننقل النصَّ بتمامه للفائدة: «ونذكر هاهنا ما معناه أنَّ كلَّ وقت اختصَّ الله جلَّ جلالُه بخدمته به، وجعله محلًّا لبسط فراش رحمته، وإطلاق المواهب لأهل مسألته للابتداء لمن لم يسأله من خليقته، فكلُّ من أخرج من ذلك الوقت شيئًا في غير العبادة، وطلب السعادة، فكأنَّه قد سرق الوقت من مـولاه، وهتك الحرمة، وخرج عن رضاه، ونازعه في إرادته، وتعرَّض بما لا طاقة له به من نقمته، فأيُّ إنسان أو أيُّ جنان يكون عارفًا بمالك رقاب العبيد، ويقدم على المجاهرة والمكابرة في مقدَّس حضرته بما لا يريد، ومتى فعل عبدٌ نحو هذا التبذُّر [التبدُّد] والتشريد في يوم عيد، فقد صار عيده من أيَّام المصيبات، وكان جديرًا أن يجلس في العزاء على ما أقدم عليه من كسر حرمة مالك الأحياء والأمـوات، وكسر حرمة رسـوله ونوَّابه عليهم السلام الذين جاؤوا بشرائع الإسـلام، ولأجل ما فاته من المواهب والإنعام، ثمَّ لينظر فيمن كان حاميه وخفيره ومضيفه في اليوم المشار إليه، كما كنَّا ذكرناه في كتاب جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، من أنَّ لكلِّ يومٍ خفيرًا ومضيِّفًا، إمَّا النبيّ أو بعض الأئمَّة (صلوات الله عليهم)، فليرجع فيما جرى عليه إليهم، وليسألهم استدراك أمره وجبر كسره، كما يرجع كلُّ ضيف فيه إلى مضيِّفه، وكل متشرِّفٍ بخفيرٍ إلى خفيره ومشرِّفه». (م)

(٢) إقبال الأعمال: ٢/ ٥٤١.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ١٦٩.

ويقول السيِّد في خُصوص شهر شعبان: «وهو كما كنَّا ذكرناه، منزلٌ من المنازل، ومرحلةٌ من المراحل يسعد أهل التَّصديق، والتَّوفيق بالظَّفر بفوائده، والجُلوس على موائده، والورود على موارده، وكفاه شرفًا ما تذكره من أنَّ رسولَ اللهﷺ اختارَهُ لنفسه الشريفة بصريح مقاله، ودعا لمن أعانه على صيامِه بمُقدَّس ابتهالِه؛ فقالﷺ: **شعبانُ شهري، رحِمَ الله من أعانني على شهرِي**»[1].

وينبِّه بقوله: «أقول: ولعلَّ هذه الرواية تختصُّ بوقتٍ دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولإنسانٍ دون إنسان»[2].

ويعدُّ الخروجَ من بعض المناسبات الزَّمانيَّة من الأمور الصَّعبةِ؛ ولعلَّه لأجل هذا كتبَ كتاب (فلاح السَّائل) الذي تضمَّن شهر رجب، وشعبان، وشهر رمضان.

«اعلمْ أنَّنا كنَّا قد ذكرْنا في أوَّل ليلةٍ من رجب، وأوَّل يومٍ منهُ طرفًا من حُرمة هذا الشَّهر، والحماء الذي جعله الله جلَّ جلالُه ممَّا لا يسهل على العارف به الخروجُ عنه»[3].

ويكتب في استقبال يوم الخامس عشر من رجب، ويشير لما فيه من أسرار: «فصل فيما نذكره من أسرار استقبال يوم النصف من رجب، اعلمْ أنَّ هذا اليوم فيه من الأسرار، وإطلاق المبارِّ، وغنى أهل الإعسار، وجبر أهل الانكسار، ما قد تضمَّنه صريح الأخبار؛ فابسطْ عند استقباله أكفُّ التعرُّض لمواهبه، ونواله، [و] أقبل بوجهه

(١) إقبال الأعمال: ٢/ ٦٨٣.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٥.
(٣) قال: «اعلم أنَّنا كنَّا قد ذكرنا في أوَّل ليلة من رجب، وأوَّل يوم منه، طرفًا من حرمة هذا الشهر، والحماء الذي جعله الله جلَّ جلالُه ممَّا لا يسهل على العارف به الخروج عنه».

قلبك على عظمة ربِّك، وانظر بعين بصيرتك إلى من رفعَ قدرَك، وأحضرك لسعادتك، وأطلقك من عقال الذُّنوب، وقُيود العيوب، وأذِنَ لك في كلِّ مطلوب، وأن تسألَه جمع شملك بكلِّ أمرٍ محبوب، واخلعْ لباس الكسالة، وأفكر أنَّك بحضرة مالك الجلالة، وعلى مائدة ضيافة صاحب الرِّسالة، ولعلَّك لا تبلغ إلى سنة أُخرى، ويوم مثله، فإيَّاك أن تفرِّط فيما جعلك الله أهلًا أن تطلبَه من فضلِه»[1].

وأشار إلى الأسرار الإلهيَّة في ليالي القدر؛ أي ليلة الواحد والعشرون، والثالث العشرون، وما فيها من فوائد للعباد: «وجدت في الأخبار أنَّ كلَّ ليلةٍ من هذه الثَّلاث ليال المذكورة فيها أسرارٌ لله جلَّ جلالُه، وفوائد للعباد [لعباده] مذخورة»[2].

ويذكر فيما يتعلَّق بعيد الأضحى، وما فيه من فتح باب السَّعادة، وتجديد الفضل، وأنَّه لا يُكرَّر إلَّا في كلِّ سنةٍ، وما ينبغي فيه على العبد من الاحترام له: «اعلم أنَّ نهار يوم العيد فتح باب سعيد، وتجديد فضلٍ جديد، لم يجرِ مثلُه منذ سنة ماضية، ويمضي فلا يعود مثله إلى نحو سنة آتية، وما يخفى على ذوي الألباب أنَّ فتح الأبواب التي تكون في الأوقات المُتباعدات بزيادة السَّعادات لها حقُّ التّعظيم، والاحترام، وحقُّ الاعتراف لصاحب الإنعام، ولزوم الآداب في سائر الأسباب مع مالك يوم الحساب»[3].

وفي نهاية المطاف من هذه الجولة في كلمات السيِّد ابن طاووس، أقترح أن نبحث مسألة أسرار العبادات من منظار السيِّد ابن طاووس بشكلٍ مُستقلٍّ.

(١) إقبال الأعمال: ٢/ ٦٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٦٤.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٢٧٥.

٣. المَنازل العرفانيَّة

ذكر السيِّدُ جملةً من موارد المنازل التي ذكرها العُرفاء مُستندًا في ذلك للآيات، والرِّوايات، مثل: التَّوحيد، الجهار، المُحاسبة، التوكُّل، الإخلاص، المعرفة، الذِّكر[١]، الفقر، المُراقبة[٢]، الأدب، صدق النيَّة[٣]، التَّفويض[٤]، الفتوح، التَّوحيد، المُكاشفة، وممَّا ينبغي الالتفات إليه أنَّه يعدُّ هذه المسائلَ مهمَّاتِ السُّلوك العمليّ، مع أنَّها لم يردها بعنوان المنازل، وتقدَّم ذكرُ جملة منها في مناسباتٍ عدَّة، ونشير في هذا المقام إلى بعض آخر أيضًا.

٣-١. التَّوحيد العمليّ

يعدُّ التَّوحيدُ العمليّ، أو التَّوحيد في العبادة مرتبةً من مراتب التَّوحيد، وحقيقةً من حقائق الدِّين؛ فالتَّوحيد العمليّ ثمَّة لذَّة معنويَّة، ومن مهمَّات سلوك السَّائلين؛ فالطَّريق الوحيد لتجعلَ من الإنسان قويًّا معنويًّا في مقابل الشَّيطان، وعروجه من التُّراب إلى الأفلاك، والعبور من حدود الجسم، والمادَّة، وظاهر الحياة الفرديَّة، والاجتماعيَّة، والوصول إلى مقام الملائكة؛ بل أعلى من ذلك، في طيِّ صراط القُرب، والاستكمال،

(١) لاحظ: إقبال الأعمال: ٢٨٧، ٣٣٧، ٦٨٠، ٥٨٦، ٧١٧، وفلاح السائل: ٤١، ١١٠، الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٥٠-٥١، ٥٥، ١٠٧، ١١٣.

(٢) راجع: إقبال الأعمال: ٨٣، ٤١٦، ٧١٨، وفلاح السائل ونجاح المسائل: ٤٠٣، وكشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٤، ١٧٦، ١٨٧، ١٨٩، وفتح الأبواب: ١٩٧، ٣٠٥، ومحاسبة النفس: ٢٥.

(٣) يُنظر: فلاح السائل: ٣٨، ٢٩، ٤٠، ٨٩، ٩٩، ١٠٠، و١٠٥، ١١٨، ١٥١، ١٥٨، ٢٠١، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١٥٣، ٣٥٩، وكشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٣، ٢٠٦.

(٤) انظر: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٢، ١٧٧، وفتح الأبواب: ١٠٧، ١١٠، ١١٢، ١٢٤، ١٢٥، والأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٤٦، الطوائف: ٢/ ٣٩٦، وفلاح السائل ونجاح المسائل: ٣٦، ٦٥، ٣٧٥.

والسَّـير في الكـمال الباطنـيّ، والوصول إلى مقامـات، ومراتب القـرب، والولاية على النَّفس، والوصول إلى الملكوت، وسـاحة الفيـض، وتلقِّي الإشراق، والإفاضة الإلهيَّة، ورفـع العطش من عين الوجود، ورفـع الحِجاب، والإشراق من جمال نـورِه، وحياتِه، وقُدرتـه، وصدقِـه، ومـن جميع كمالتـه تعـالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

وبتعبـير الشَّـهيد المطهَّـريّ: «التَّوحيد النظريّ نحـوٌ من المعرفة، وأمَّـا التَّوحيد في العبـادة، فهو توحيدٌ عمليٌّ يتعلَّـق بالكينونة، والصَّيرورة الحقيقيَّـة.. وهذه المرحلة من التَّوحيد تشكِّلُ الكينونةَ، والصَّيرورة الحقيقيَّة، ويمنح التَّوحيدُ النَّظريّ الرُّؤية الواضحة للكمال، أمَّا التوحيد العمليّ، فهو يوجِّه الحركةَ نحو السَّبيل الموصلة للكمال.

والتَّوحيـد النظريّ، هو إدراك لوحدانيَّة الله، أمَّا التوحيد العمليّ، فهو توحيدُ ذات الإنسان، والتَّوحيد النظريّ رؤيةٌ، أمَّا التَّوحيد العمليّ، فهو سلوكٌ»(٢).

«فالتَّوحيـد العمـليّ مـن نتائـج التَّوحيد النَّظـريّ (المعرفـة، والاعتقـاد بمالكيَّته، وربوبيَّتـه ﷻ)، والتَّكليف في الرُّؤية الكونيَّة الإلهيَّة للسَّـالك ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٣)»(٤).

ويعتقد السـيِّد أنَّ العلَّة الأسـاسَ مـن التَّكليف هي تشريفٌ لعبادة من يسـتحقُّ العِبـادة «اعلمْ أنَّ أصل علَّة التَّكليف أنَّه تشريفٌ لعبادة من يسـتحقُّ العبادة؛ لأنَّه جلَّ جلالُه أهلٌ لها؛ فهذه العلَّةُ الأصليَّة في التَّكاليف الإلهيَّة»(٥).

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٢) مجموعه آثار الشهيد مطهَّريّ: ٢/ ١٠٤.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٤) مجموعه آثار الشهيد مطهَّريّ: ٢/ ١٠٤.
(٥) إقبال الأعمال: ١/ ٤.

التَّوحيـد العمليّ في العبادة يعني طاعـة الله وحدَه، والاتِّجاه إليه في حركتنا، واتِّخاذه قبلـةً، ومثالًا لأرواحنا، والإعراض عن كلِّ مُطاعٍ سـواه، وعـن أيَّة جهةٍ أخرى، وقبلة أخرى. ومثال آخر؛ وهذا يعني أنَّ يكون كلّ انعطافه لله، وكلّ استقامة لله، وكلّ خدمةٍ لله؛ فنحن من أجل الله نحيا، ومن أجلِه نموت.

وقد قال نبيّ الله إبراهيم (صلَّى الله على نبيِّنا وآله، وعليه السَّلام): ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

إنَّ توحيـد النبـيّ إبراهيم (صلَّى الله عـلى نبيِّنا وآله، وعليه السَّـلام) توحيدٌ عمليٌّ، الكلمة الطيِّبة: لا إله إلَّا الله، ناظرة قبل كلِّ شيءٍ إلى التَّوحيد العمليّ، وهي تعني أنَّ غير الله ليس مستحقًّا للعبادة[2].

وصرَّح السـيِّد من أنَّ قـول لا إله إلَّا الله لفظًا لا تكفي؛ بـل ينبغي عمليًّا: «أقول: المهمُّ أن يكونَ تلفظُكَ بالشَّـهادة معاملةً لله جلَّ جلالُـه، وعبادةً، ولا يكون قصدُك أنَّه جـلَّ جلالُـه في نفس الأمر واحد؛ فحسـب؛ وإنَّما يُراد منك أنَّك تعتقـد أنَّه جلَّ جلالُه واحد في نفس الأمر، وأنَّه لا إله لك تعبدُه سـواه، ولا لك شيء تؤثره على رضاه؛ فإنَّك إن آثـرتَ شـيئًا عليه جلَّ جلالُـه، كان ذلك الذي تؤثره أرجحَ منه جـلَّ جلالُه عندك، ومعبـودًا لـك من دونه فيما تؤثِره فيـه عليه، وما تكون كامل الصِّدق في الشَّـهادة بأنَّك لا إلـه لك سـواه، أفـلا ترى قوله جـلَّ جلالُه فيمن رجَّـح عليه هواه؛ فقال سـبحانَه: ﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾»[3].

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١-١٦٣.
(٢) مجموعه آثار الشهيد مطهَّريّ: ٢/ ١٠٥.
(٣) فلاح السائل: ١١٧.

ويشير السيِّد إلى ما تعصَّب الأبناء لآبائهم بالباطل: «لقد وجدت الأبناء يتعصَّبون للآباء في اعتقاد الباطل، حتَّى تعصَّبوا لهم في عبادة الأصنام، وقتلوا نفوسَهم، وعرضوا لها للاصطدام؛ فعلامَ لا يتعصَّب أبناء القوم المسعودين في الدُّنيا، والدِّين، ويحفظون سبيل آبائهم الطَّاهرين، ويمضون عليه قدمًا بغير تهوين، ولو خاطروا في ذلك بالدُّنيا كلّها، كان مقدارُها عند العارفين مقدارًا هيِّنًا»(١).

ويبيِّن كيفيَّة العبادة باختيار الله ﷻ، وبنحوٍ كلِّيّ متعيِّن: أ. من لحاظ جنس الطَّاعات، ب. من لحاظ الأوقات: «أمَّا تعيين وجه اختيار الله جلَّ جلالُه من العبد أن تكون خدمته له بجنسٍ من الطَّاعات، وعلى وجهٍ متعيِّن في بعض الأوقات؛ فهذا طريقة عن العالم بالغائبات على لسان رسله عليهم السلام، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»(٢).

ويشير إلى أنَّ فلسفة العبادة ليس لأجل الثَّواب بمُقتضى النَّقل، والعقل؛ بل باعتقاد السيِّد أنَّ العبادة لله ﷻ؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، «فلا يقتضي العقلُ، والنَّقل أن يعبدَ لأجل طلب الثَّواب؛ بل يعبدُ الله جلَّ جلالُه؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة، وله المِنَّة عليك»(٣).

«وإيَّاك أن تخالف قولي: لا تطلب ثوابًا أصلًا»(٤).

«أنَّك لا تطلب منه جزاءً عاجلًا، وآجلًا، كما نبَّهنا عليه فيما أسلفناه؛ بل لأنَّه يستحقُّ الخدمةَ منك؛ فإنَّه أهلٌ للعبادة الصادرة عنك»(٥).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٢.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٤
(٣) المصدر نفسه: ١٨٣.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٨.

وممَّا يذكره من موضوعاتٍ واجبة للعبوديَّة لغرض الوصول إلى المقامات الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فيشير إلى فلسفة العبادة في هذا السِّياق، والبرنامج العباديّ في الحركاتِ، والسَّكَنات، واختيار العبد بالإرادة الله عزَّ وجلَّ «قد تولَّى سلاحَه من حفظه من النِّقَم التي جرتْ على من سلَفَ من الأُمم، وعامله بالكرم، والنِّعم حتَّى أوجب عليه من العبوديَّة بما بلَّغَهُ من المقامات الدنيويَّة، والدينيَّة أن تكون حركاته، وسكناته، وأسفاره واختياره كلُّها بحسب الإرادة الإلهيَّة»[1].

وعليه فالشَّخص الذي في طريق إرادة الله عزَّ وجلَّ تكون تصرّفاته «بالله، ومن الله، ولله»؛ فحينها يكون العبدُ قد وصلَ إلى أكمل مقامِ أدبِ العبد مع الله.

وهكذا الوصيّ الإمام عليّ عليه السلام «فهل تجد في أمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله أحدًا يقاربه، أو يقارنهُ في الكمال؟»[2].

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٨.

(٢) لا باس بنقل تمام العبارة: «و قد عرف أولو الألباب أنَّه متى عرف أحدهم أنَّه إذا خاصم عدوًّا أو حارب إنسانًا، غلبه العدو، أو كانت العاقبة لخصمه، أنَّه يضعف جنانه ويذلّ لسانه ولا تساعده همَّته ولا تعاضده شجاعته، وإن نهض مع ذلك إلى عدوِّه وخصمه، فبقلب مسلِّم للعطب والذلَّة، وحركات تشهد عليه بالضعف عمَّن قصد إليه، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام كان على ما يشهد به تواريخ العلماء من سائر أرباب المذاهب، إذ كان في حروبه لا يظهر عليه إلَّا أنَّه يقهر معاوية، ويكون هو في غاية الظافريَّة والغالبيَّة، وهذا جمع منه عليه السلام بين الأضداد، وخلاف سجايا من هو دونه من العباد.
ومن عجائب ذلك أنَّه كان قد صار بحيث لا يتصرَّف في ذاته ولا في صفاته وحركاته وسكناته لإرادته، بل بحسب إرادة ربِّه ومولاه الذي يعلِّمه كأنَّه يراه، وهذه آية باهرة، وسرٌّ عظيم لمن عرف معناه.
ومن عجيب تصديق ما قلناه ما رأيت من جوابه عليه السلام لـمَّا سُئل عن شيء من الأمور المتجدِّدة له، وهو أنَّ محمَّد بن عليّ الرازيّ ذكر في كتاب الشفاء والجلاء في أوائل النصف الثاني من الكتاب، فقال ما هذا لفظه: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ=

وينبِّه: «ثمَّ سلِّم اختيارَك الذي أنعم به عليك إليه، وتضرَّع بين يديه أن يكون هو المُتولِّي لاختيارك بما يلهمُك، ويهديك إليه إن شاء الله تعالى»[1].

وهكذا ذكر مبحثًا عن الربوبيَّة بعنوان: آداب السُّحور، وأشار إلى كيفيَّة الدُّخول تحت إرادة الله، وتدبيره ﷻ[2].

ويعتقد أنَّ الرَّسولَ الأعظم ﷺ ما بُعِثَ لمعاملة العباد لعبادةِ غير المعبود: «وصاحب الشريعة ﷺ ما بُعِثَ إلى العباد بمُعاملةٍ، وعبوديَّةٍ لغير معبود»[3].

ويعتقد أنَّ المعرفة مدخلٌ للعبوديَّة، بمعنى أنَّ العارفَ في مسيره العرفانيّ يعتقد أنَّ المالكيَّة على الإطلاق، والربوبيَّة لله ﷻ، حتَّى يستغرقَ في العبوديَّة.

وسجَّل أنَّ معرفة الثَّواب، والعِقاب مسبوقٌ بمعرفة الذَّات، والصِّفات، وكذا التزام الأدب في حُضور الله ﷻ، ومحضره، ولُزوم أدب حضرة وجودِه، ومُراداته، ومُناجاته لله ﷻ قبل معرفة الثَّواب، والعِقاب، ويعتقد أنَّ هذه الأسباب؛ أي: معرفة

=بِلَالٍ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا أَحْضَرَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَدْ وَجَّهَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، فَقَالَ لَهُ: **احْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَلَا تُجَاوِزْهُ**. فَلَمَّا أَدْبَرَ، قَالَ: **كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ خُدِعَ**، قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلِمَ تُوَجِّهُهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْدُوعٌ؟ فَقَالَ: **يَا بُنَيَّ لَوْ عَمِلَ اللهُ فِي خَلْقِهِ بِعِلْمِهِ؛ مَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ**. هذا آخر الحديث المذكور.

أفلا ترى علمه بالأحوال، وكمال جوابه عند السؤال؟ وقوله: **لو عمل الله في خلقه بعلمه؛ ما احتجَّ عليهم بالرُّسل**، ولم يقل: لو عملت أنا بعلمي، يريد أنَّني أتصرَّف في نفسي وغيري بالله وفي الله ومن الله ولله، وأن قد جعل إرادته إرادة الله، وكراهيته كراهية الله، وهو أكمل مقام العبد في الأدب مع الله؛ فهل تجد في أمَّة محمَّد ﷺ أحدًا يقاربه أو يقارنه في الكمال؟». الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٥١١. (م)

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٤.

(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٨٣.

(٣) فلاح السائل: ١١١.

الـذَّات، والصِّفـات، ولُـزوم أدب حـضرة وجـوده، ومُراداتـه، ومُناجاتـه تُدخلُه إلى العِبادة.

ومن هنا أشار السيِّد إلى عبادة المُخلصين، وفي نظرِه أنَّ العقلَ لا عدولَ له من عبادة المُخلصين.

«وهل كان للألباب عدولٌ عن هذا الباب»[1].

إنَّ السـيِّد يشير إلى أنَّ العاقل يعرف هذه الأسبابَ بلا شكٍّ، وأنَّه عجل أهلٌ للعِبادة؛ «فـكلُّ عاقـلٍ عارف بهذه الأسـباب يعبُـده؛ لأنَّه جلَّ جلالُـه أهلٌ للعبـادة، وهل كان ذلـك الكمال، والجـلال، يحتاج إلى بذلِ رِشـوةٍ من ثـوابٍ، أو تخويفٍ مـن عقابٍ عند المُعترفين له بحقِّ الملكة، والسِّـيادة، حوشي ذلك المالـك الأعظم، والمقام المعظَّم من أن لا يرغب مملوكه في حبِّه، وقُربه، وخدمته، إلَّا بالرَّشوات؛ بل يجب على مماليكه أن يبذلوا المجهودَ في قبولهم، وتأهيلهم للخدمة، والعبادات»[2].

ويعتقد أنَّ العقولَ السَّليمة لها ثلاث خصوصيَّات:

أ. «فالعقـول السَّـليمة مشـغولةٌ بـما لزِمَهـا بمعرفتـه من حـقِّ إنشـائه، وتربيته، وهدايته»[3].

ب. «ومغرمة بحفظ حُرمة وجودِه، وهيبته»[4].

ج. «ومتشـرِّفة بما خلقَها لهُ من طلبِ كمال معرفته، وعبادته»[5].

(١) فلاح السائل: ٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.

وممَّا ينبغي الالتفات له أنَّه يُشير إلى أنَّ الهدف من الخلق معرفتُه، وعبادتُه ﷻ «بما خلقها له من طلب كمال معرفتِهِ، وعبادته»[1].

ويشير إلى شرطَين لكون الإنسان مهيَّئًا لتقبُّل أوامره ﷻ، وهما المُعاملة مع الله ﷻ، والمعرفة: «إنَّك إن كنت عبدًا معاملًا لله جلَّ جلالُه في جميع الحركات، والسَّكَنات، عارفًا بمعنى قوله جلَّ جلالُه في مُحكم الآيات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ فأنت إذا كنت كذلك، لا زلت متهيِّئًا لأوامره»[2].

أوَّلًا: معاملة مع الله، بمعنى تحقُّق معرفة الله ﷻ «إنَّك إن كنتَ عبدًا معاملًا لله جلَّ جلالُه في جميع الحركاتِ، والسَّكَنات».

ثانيًا: معرفة الحكمة من الخلق؛ فينبغي معرفة ذلك «عارفًا بمعنى قولِه جلَّ جلالُه في مُحكم الآيات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾».

ويعتقد أنَّ مقصود الإنسان في العبادة النيَّة: «قصد الإنسان للعبادة.. هو النيَّة»[3].

وكثيرًا ما يُذكِّر في آثاره على حقيقة، وهي: «العبدُ يعبدُ الله جلَّ جلالُه؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة»[4].

وتقدَّم ما ذكرَهُ من قول العبد «لا إله إلَّا الله»، لا تكفي باللسان؛ فينبغي أن يكون ذلك بالوحدانيَّة، والألوهيَّة، والعبوديَّة في المُعاملة أيضًا[5].

(١) فلاح السائل: ٥.
(٢) المصدر نفسه: ٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ٩٨.
(٤) المصدر نفسه: ٢٥
(٥) وتمام عبارته: «أقول: المهمُّ أن يكون تلفُّظك بالشهادة معاملة لله جلَّ جلالُه، وعبادة، ولا يكون=

ويذكر السيِّد أنَّ عبادات أهل التَّصديق، والتَّوفيق الخالص لله عزَّ وجلَّ، مثل: أولياء الله عزَّ وجلَّ «إنَّهم [محمَّد وآله]صلى الله عليه وآله ما عبدوه خوفًا من نارِه، ولا شوقًا إلى جنَّته؛ بل وجدوه أهلًا للعبادة؛ فعبدوهُ لخالص عبادته، وأنت لولا الآمال العاجلة، والآجلة لعلَّك ما عبدتَهُ، ولا كان لك همَّة إلى عبادته بفريضةٍ، ولا نافلة، فأنت في المعنى والتَّحقيق تعبدُ شهوتَك، ولذَّتك كالضَّالِّ على غير طريق التَّوفيق؛ فأينَ أنتَ من عبادة أهل التَّصديق؟!»[1].

ويقول في موضعٍ آخر: «واعلم أنَّك إن عبدتَه لأجل طلب أُجرةٍ على عبادتك، كنتَ في مخاطرتك»[2].

=قصدك أنَّه جلَّ جلاله في نفس الأمر واحد فحسب، وإنَّما يُراد منك أنَّك تعتقد أنَّه جلَّ جلالُه واحد في نفس الأمر، وأنَّه لا إله لك تعبده سواه، ولا لك شيء تؤثره على رضاه، فإنَّك إن آثرت شيئًا عليه جلَّ جلالُه، كان ذلك الذي تؤثره أرجح منه جلَّ جلالُه عندك، ومعبودًا لك من دونه فيما تؤثره فيه عليه، وما تكون كامل الصدق في الشهادة بأنَّك لا إله لك سواه، أفلا ترى قوله جلَّ جلالُه فيمن رجحَ عليه هواه فقال سبحانه: ﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾». فلاح السائل: ١١٧. (م)

(١) انقل تمام كلام السيِّد للفائدة: «لعلَّ يخطر بقلب أحد يصلِّي صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وصلاة أحد من عترته والمتشرِّفين باختصاص الله جلَّ جلالُه وإقباله، ويأتي بمثلها في عدد الرَّكعات وصفة ظاهر القراءة والركوع والسجود والحركات والسكنات، فيعتقد أنَّه قد ساواهم في تلك الصلوات، فإيَّاه أن يخطر هذا بقلبه، ثمَّ يعتقده، فإنَّه من المهلكات، وقد كشفنا ذلك في أواخر الجزء الثالث من هذا الكتاب، فانظر ما هناك، ففيه بلاغٌ لذوي الألباب، ويكفيك هاهنا أنَّهم (صلى الله عليهم) ما عبدوه خوفًا من ناره، ولا شوقًا إلى جنَّته، بل وجدوه أهلًا للعبادة فعبدوه لخالص عبادته، وأنت لولا الآمال العاجلة والآجلة، لعلَّك ما عبدته، ولا كان لك همَّة إلى عبادته بفريضة ولا نافلة، فأنت في المعنى والتحقيق تعبد شهوتك ولذَّتك، كالضَّالِّ على غير طريق التوفيق، فأين أنت من عبادة أهل التصديق؟». جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٤٥. (م)

(٢) إقبال الأعمال: ١/ ١٨٤.

التقرُّب: نذكر هنا الطَّريقة والعبوديَّة لله ﷻ، إنَّ الكمال الحقيقيّ للإنسان يحصل في ظـلِّ التقرُّب، وهو الوصول في الطَّريقة، والعبوديَّة، مع أنَّه يعدُّ هدفًا، ولكنَّه يحصل من مباني المعرفة الأوَّليَّة، ولكن بنظرةٍ أعمق نسـبة تلـك الحقيقة = معرفة الله ﷻ، في حُكم المقدِّمة، في سُلَّمِ الصُّعود.

ولا يخفى أنَّ الوصول ليس من سنخ القرب الجسمانيّ، والمكانيّ، وإن كان للجوارح أثرٌ في ذلك.

«واستعمال جوارحه فيما يقرِّبُه من رضاه»[1].

ويعدُّ هذا من سـنخ القرب المعنويّ، والصَّيرورة الوجوديَّة، وهذا القُرب الحقيقيّ لـه مراتب، ويقـع في طول القـرب الوجوديِّ لله ﷻ «أقـرب إليَّ من حبـل الوريد»[2]، ومنشـأ هـذه العطايا في قوس النُّزول، ومحصول السـير، والسُّـلوك القلبـيّ، والمعنويّ في قـوس الصُّعود، وحصاده بالاختيـار، وتحقيق العبوديَّة «أنَّه أهلٌ للعبادة»، بحسـب سـعته الوجوديَّة، وتقدَّم في العنوان الأسـاس مكانة الدُّعاء في السُّـلوك، من أنَّ الدُّعاء من شـؤون العبوديَّة، وهو طريـقُ القرب، والارتباط، والأُنـس، وتكلُّم العبد مع ربِّ الأرباب، والمالك على الإطلاق.

يعُدُّ السـيِّد العبوديَّة منسـجمةَ العقلائيَّة؛ فيسـجِّل لنا من أنَّ الهـدفَ من العبوديَّة التقرُّب بحُكم العقل، والطَّاعة، والخِدمةُ، هي الواسطة للوصول إلى هذا الهدف.

«فإنَّـك تـرى العقول قاضيةً بأنَّ السُّـلطان الكامل الذي يُرجى إحسـانه بالتقرُّب إليه، يُرشى، وتُبذل النُّفوس، والرُّؤوس في التقرُّب منه، والإنفاق عليه»[3].

(١) إقبال الأعمال: ١١٢.
(٢) لاحظ: فلاح السائل: ٦.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٧.

وبعقيدة السيِّد التقرُّبُ فضلٌ إلهيّ؛ فيذهب السيِّد إلى أن تكون العبوديَّة للعبوديَّة، لا طلبًا للثَّواب، وهربًا من العقاب؛ فلا ينبغي الإلفات إلى ذلك أساسًا «قدَّمناه؛ فإيَّاك أن يخطر ببالِك ثوابٌ، أو جزاءٌ على طاعتك أو خدمتِك؛ فإنَّك ترى العقول قاضيةً بأنَّ السُّلطان الكامل الذي يُرجى إحسانه بالتقرُّب إليه، يُرشى، وتُبذل النُّفوس، والرُّؤوس في التقرُّب منه، والإنفاق عليه؛ فتعلم أنَّ كلَّ من أحسن إحسانًا كثيرًا إلى عبدٍ من العباد؛ فإنَّه يجد من نفسه لزوم خدمته، والوفاء له، ومتابعة إرادته بغاية الاجتهاد؛ فلأيِّ حالٍ كان الحالُ مع الله جلَّ جلالُه في العقول دون هذه الحال، تعالى الله جلَّ جلالُه عن المُقابلة بهذه الضَّلالة»[1].

وذكر أنَّ القربَ يحصل بالخلوة مع مالك القلوب[2].

ويشير إلى أنَّ أسباب التقرُّب في الوهلة الأولى المُراقبة، والطَّهارة، والابتعاد عن الذُّنوب الظاهريَّة، والباطنيَّة، وفي حالِ الخطأ يطلب العفوَ، والتَّوبةَ خالصةً، وصادقةً، كما أن يقدِّم طهارة الجسمِ بالغسلِ، والوضوء، إزالة النَّجاسة من الجسم.

إذا شخصٌ قبل إزالة النَّجاسة من البدن، وغسله أو الوضوء يزيلُ من الأعضاء وسخَ الذُّنوب، ودنَس العُيوب، ولعلَّ السيِّد من هذا الحكم الفقهيّ أوردَ مسألةً مهمَّةً، وهي توبة الأعضاء، وتقديم تطهير الأعضاء معنويًّا، وهو الأهمُّ، وببيانٍ آخر: ينبغي توبة الأعضاء قبل الغسل، والوضوء، وهذا الأهمُّ.

وهذه المسألة تقديم الأهمِّ على المُهمِّ، وهو من علامات السَّالك الواعي، ودرك حضوره عجل.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٧٧.

(٢) وعبارته «قلت أنا: وكم من مطلب عزيز، وحسن حريز في الخلوة بمالك القلوب، وكم هناك من قرب محبوبٍ وسرٍّ غير محجوب، فلمَّا رأيت فوائد الخلوة والمناجاة وما فيها من مراده لعبده من العزِّ والجاه والظفر بالنجاة والسعادة في الحياة وبعد الوفاة». فلاح السائل: ٦. (م).

وأمَّا تقديم المهمِّ على الأهمِّ، والانشغال به؛ فتلك علامةُ الغفلة، والبُعد عن الله ﷻ؛ فيكون كالمُستهزئ؛ إذ ترك الأهمَّ، وانشغل بالمُهمِّ[1].

ومن مِنظار السيِّد، فإنَّ علامةُ القُرب هي تحقُّقُ حضور القلب، والعقل، والنَّفس في محضر الله ﷻ؛ فمعيار التقرُّب هو الوصول إلى جود حضرته، «فإذا رأيتَ قلبَك، وعقلَك، ونفسَك بين يدي الله جلَّ جلالُه على هذه الصِّفات عند الضّراعات؛ فاعلمْ أنَّك في حضرة وجودِه؛ فيا لها من عناياتٍ، ومفتاح سعادات، وتعجيل إجابات، وإذا رأيت قلبَكَ غافلًا، وعقلَك ذاهلًا، ووجدتْ نفسَك لها عن الله جلَّ جلالُه شغلًا شاغلًا، وكأنَّك تدعو، ولستَ بحضرة أحدٍ على اليقين»[2].

وبتعبير آخر: علامة التقرُّب أن لا يرجِّح قلبَ الإنسان، ونفسه، وعقله غيرَ الله على الله، وأمَّا علامة البُعد فعكس ذلك: «فإذا وجدت عقلَك، وقلبَك، ونفسك تؤثِر على الله جلَّ جلالُه غيرَه؛ فاعلمْ أنَّك داخل تحت تهديد سُلطان العالمين»[3].

«فلا تؤثرنَّ أحدًا عليه؛ فاحفظْه، والزم التقرُّب إليه، والذُّلَّ بين يديه»[4].

ويرى من الكمال أن يتمركز العقلُ، والقلبُ، والجوارحُ في صرف العمل الصَّالح، ويَعُدُّ غير ذلك من الغفلة، وكتب في الاعتكاف في هذا السياق: «اعلمْ أنَّ

(١) وتمام عبارته: «المهمُّ لمن يريد الطهارة بالماء أن يبدأ بتطهير الأعضاء من وسخ الذنوب، ودنس العيوب، قبل غسلها بالماء؛ فإنه إذا غسلها وهو غافل عن تطهيرها ممَّا يكرهه مولاه الذي يريد وقوفه بين يديه، وكان في حال غسلها بالماء غائبًا عن الله جلَّ جلالُه في سِفر غفلته وجرأته عليه، كان كالمستهزئ، حيث ترك الأهمَّ واشتغل بالدُّون، ولا يأمن أن يتناوله تهديد قوله جلَّ جلالُه: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾». فلاح السائل: ٥١. (م).

(٢) فلاح السائل: ٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣.

(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٦.

كـمال الاعتكاف هـو إيقاف العقول، والقلـوب، والجوارح على مجـرَّد العمل الصَّالح، وحبسـها عـلى بـاب الله جلَّ جلالُـه، وتقـدَّس، وإرادتـه، وتقييدهـا بقيـود مراقباته، وصيانتها»[1].

ويـرى أنَّ المُحبَّ الحقيقيّ لله ﷻ لا يتكلَّف من العمل لأجل حبيبِه، والتقرُّب إليه: «فهل يصحُّ في العقل أنَّ المُحبَّ يسـتثقل العملَ في طلب رضا محبوبِه، أو يكره شـيئًا ممَّا يقرِّبه إليه؟»[2].

ومفهوم المُخالفة من هذا النصِّ هو ترك الأعمال الصَّالحة، والذَّنب، والتبعُّد؛ فهذا حقيقـة لا يحبُّ الله ﷻ، وهذا لم يدركْ نعمةَ الله ﷻ، ويسـتند السـيِّد في ذلك إلى المنقول الـذي يوافق العقل: «أقول: أفَلا تسـمع قول الصَّادق عليه السلام المنقـول الموافق للمعقول ما أحـبَّ الله مَـن عصاه؛ فإذا كان العـاصي له غير محبٍّ لجلالِه؛ فكيف يكون المُسـتثقل لما يقرِّب إليه سبحانَهُ محبًّا، أو عارفًا بفوائد إقبالِه»[3].

ويوصي في السُّـلوك العمليّ لمن يريد القربَ أكثر عليه بالسُّـجود[4]؛ فيعدُّ ذلك من مقامات القربِ الإلهيّ[5].

ويسـتند إلى الآية الكريمـة[6] من القرآن الكريم، إلى أنَّ السَّـجدةَ مدخلٌ، ومقدِّمة للقربِ الإلهيّ[7]، ويعُدُّ السـيِّد السجدةَ ميسورةً، يقول في هذا المضمار: «فطالِبْ نفسَك

(١) إقبال الأعمال: ١/ ١٩٥.
(٢) فلاح السائل: ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ١٥٩.
(٤) المصدر نفسه: ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه: ١١٧.
(٦) سورة العلق، الآية: ١٩.
(٧) فلاح السائل: ١١١.

بأنَّها تجدُ عند السُّجود»[١].

ويمثِّل السيِّد ذلك القرب بالمحسوس، كيف أنَّ قربَ المحبوب للحبيب: «ما يجد المحبُّ بقربِ المحبوب»[٢].

«ثمَّ أقول لك إن كنتَ تجد في سجودك ما يجدهُ المُحبُّ من الرَّوح، والسرور إذا قرُب من أهل الحبِّ، وإلَّا فسجودُك ذميمٌ مدخولٌ، وقلبك سقيمٌ معلولٌ»[٣].

يعدُّ السُّجود منتهى العبوديَّة، وفي بساط حرم التقرُّب، وتقدَّم ما ذكره السيِّد من أدب السُّجود، وعدَّ تحقُّق السُّجود الحقيقيّ شرطًا من مقدِّمات التقرُّب[٤].

ويعتقد أنَّ تحصيل التقرُّب ينتمي إلى التوجُّه بمُناسبة السُّلوك الزَّمانيّ، والعبوديَّة، كما تقدَّم من أنَّ أساس العنوان «مكانة الدُّعاء في السُّلوك»، ويرى السيِّد أنَّ الدَّوام على المُناجاة سبب لأُنس العبد بربِّه: «عنه إنِّي رأيتُ من فوائد المُحافظة على المُناجاة أنَّ ذكرَ الله جلَّ جلالُه يصير أغلب على العقل؛ فيصير سببًا لأُنس العبد بالرَّبِّ، ويشتغل به عن الخواطر الدنيويَّة، والأسباب الرديَّة؛ فيكون ذلك داعيًا إلى المُراقبة لمولاه، والسَّلامة من المجانبة، والظَّفَر برضاه»[٥].

وينظر بنظرة نهائيَّة جميع أعمال العارف تتحرَّك في ظلِّ التقرُّب[٦].

(١) فلاح السائل: ١١١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ٩-١٠.
(٥) المصدر نفسه: ٤٠.
(٦) يلاحظ: الإقبال: ٥٤١.

٣-٢. الذِّكر الحضور والمُراقبة

٣-٢-١. ممَّا ينبغي ذكرُه من أنَّ الحضور، والمُراقبة في منطقة القلب، وما يرتبط بالجوارح، ولأنَّ الحضور، والمُراقبة الخارجيَّة رعايةُ الحضور، والمُراقبة الداخليَّة أوَّلًا، سنذكر من إدراك الحضور بعنوان المقدِّمة للمُراقبة؛ فسنبيِّن من أنَّ المُراقبة بعنوان ذي المقدِّمة؛ فيضحى الأدبُ مع الله من شؤون المُراقبة، وبنظري تقدُّم الذِّكرُ على المُراقبة كتقدُّم المعرفة على العبوديَّة، ويُفهم تقديم العلم على المُراقبة من السُّؤال القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾[١].

وكيف كان الدَّركُ، والحُضور جزءًا متَّصلًا بالدُّخول للمُراقبة، هكذا جاء في عبارات السيِّد في هذا السياق: «إنَّ ذِكر الله جلَّ جلالُه يصير أغلب على العقل، فيصير سببًا لأُنس العبد بالربِّ، ويشتغل به عن الخواطر الدنيويَّة، والأسباب الرديَّة؛ فيكون ذلك داعيًا إلى المُراقبة لمولاه»[٢].

«الله جلَّ جلالُه الذي عطفَ على أوليائِه، وخاصَّته، ولطف لهم بما أراهم من أسرار ملكوته، ومملكته، وكشف الحجب بينَهم، وبين عظمة ربوبيَّته؛ فأشرقت على سرائر قلوبهم شموسُ إقبالِه، وتحقَّقتْ بصائرهم بما شاء من مُقدَّسِ جلالِه؛ فعصمَهم بتلك الهيبة أن يقعَ في حضرتِه الاشتغال عنه منهم، واشتغلُوا بمُراقبته جلَّ جلالُه عنهم»[٣].

تعدُّ من أهمِّ المَسائل في مسيرة العبد الدُّعاء، والمُناجاة (سُلوك السَّائلين) أن يُدركَ الحضورَ، وتلقِّي الرَّحمة من الله؛ فهذه المَسألةُ في نظر السيِّد لها أهميَّةٌ خاصَّة، من أن العبدَ يدركُ حضورَ، وحضرة، وإحاطة، واطِّلاع الله ﷻ، وهي الأصلُ، والأساسُ

(١) سورة العلق، الآية: ١٤.
(٢) فلاح السائل: ٤٠.
(٣) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٠٩.

للسُّلوك: «إنَّ أصل ما أنت فيه أن تكون ذاكرًا أنَّك بين يدي الله جلَّ جلالُه، وأنَّه مُطَّلعٌ عليك»[١].

ويكتبُ السيِّد في لزوم الدَّوام على إدراك الحضور بعد العبادة: «أقول: فينبغي له إذا انفصل بعد صلاة العصر من مقام الذُّلِّ، والذِّكر أن يكونَ على خاطرِه أنَّه ما خرج عن ذلِّ العبوديَّة، ولا انفصل عن اطِّلاع إحاطة العلوم الربَّانيَّة، ولا أطلقوه من المُعاملة فيما يعملُه بعد ذلك من سائر حركاتِه، وسكناتِه، وأنَّه يُراد منه أن يكون عابدًا لله جلَّ جلالُه في سائر تصرُّفاته»[٢].

ويعدُّ أنَّ الحضورَ يحتاجُ الإنسانُ معه رحمةَ الله عزَّ وجلَّ.

كما أنَّه يعتقد «أنت محتاجٌ إلى جميلِ صُحبته، ورحمته، مع دوام بقائه بعد المِمات، ومن ذا يحميك منه إن أعرض عنكَ، أو أعرضتَ عنه؟ ومن الذي يحفظ عليك إذا ضيَّعت نفسك، وكلَّ ما في يديك؟ ومن الذي إذا أخرجته من قلبك تتعوَّض به عن ربِّك جلَّ جلالُه؟ فأريد من رحمته أن يملأ قلبك من معرفته، وهيبته، ورحمته، ويستعمل عقلَك، وجوارحك في خدمتِه، وطاعته، حتَّى يكون إن جلستَ فتكون ذاكرًا أنَّك بين يديه، وإن أقمت تكون ذاكرًا أنَّ قوَّة قدرتِك على المشي منه، وتتأدَّب في المشي تأدُّبَ الماشي بحضرة ملك الملوك إليه الذي لا غناءَ عنه»[٣].

وطالما كرَّر في وصيَّته لابنه: «تذكَّرْ أنَّه يراكَ»[٤].

و: «وتذكَّر أنَّ اللهَ يرى»[٥].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٦.
(٢) فلاح السائل: ٢١٠.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ١٦٣.
(٥) المصدر نفسه.

«حيثُ كنتَ فأنت بين يديه»[1].

إنَّ السيِّد لا يعطي أولويَّة لشيء على الله ﷻ، والمُحافظة على حرمته، والسَّعي للتقرُّب إليه ﷻ، والذِّلَّة لهُ: «فلا تؤثرنَّ أحدًا عليه؛ فاحفظْه، والزمِ التقرُّب إليه، والذُّلَّ بين يديه»[2].

ويعتقد أنَّ إقبال الظَّاهر تابعٌ لإقبال الباطن؛ فمن كان عنده إقبالٌ باطنيّ بلا شكٍّ يسري إلى الظَّاهري، ولكن الإقبال الظاهريّ يُمكن أن يسريَ إلى الباطن؛ وأنَّ الجوارح كالرعيَّة مع القلب، «وَلَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ: مَا أَحْسَنَ مَا تُقْبِلُ بِوَجْهِكَ عَلَى الصَّلَوَاتِ؛ فَقَالَ: إِنْ كَانَ وَجْهِي لَا يَلْتَفِتُ؛ فَإِنَّ وَجْهَ قَلْبِي كَثِيرُ الِالْتِفَاتِ.

أقول: فإذا كان وجهُ القلبِ مقبلًا، ومتوجِّهًا إلى الله جلَّ جلالُه بالكلِّيَّة، كانتِ الجوارحُ مقبلةً على الله جلَّ جلالُه فيما خُلِقَتْ له؛ لأنَّها مع القلب كالرَّعيَّة»[3].

ومن هُنا إذا شخصٌ أحسَّ بالإقبال القلبيّ، والقبليّ عند دخوله للصَّلاة، وحافظ على هذا حتَّى فرغَ من صلاته؛ «فقد ظفر ببلوغ الآمال»[4].

تقدَّم من أنَّ المُراقبة أن يستحضِرَ السَّالكُ، ويعتقد حضور المالك على الإطلاق؛ فيولي السيِّد اهتمامًا لدرك حضورِ، ومحضر مالك الدُّنيا، والآخرة «ولا يشغلنَّك الملائكة الحافظون، ولا أحدٌ من بني آدم الحاضرون، الذين هم بعد وقت قليلٍ ميِّتون عن مولاك، ومولاهم، ومالك دُنياك، وآخرتك، ودنياهم، وآخرتهم؛ فإنَّ العقلَ قضى أنَّه يقبحُ من العاقل أن يشتغلَ بمملوكٍ عن مالكٍ»[5].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٤٦، ولاحظ أيضًا: فلاح السائل: ٩٩، ٢٠١، ٢٠٢.
(٣) فلاح السائل: ١٠٢.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٧.

ويكتب السيِّد لابنه في خصوص المدخل لذكر الحُضور: «فتذكَّر يا ولدي جمَّلك الله بتذكيره لك، وعنايتِه بك، أنَّه جلَّ جلالُه في المعنى خدمك، وله المثل الأعلى يشرِّفك بمعرفته، وقبل أن يتحفَك بالسَّعادة بخدمته، بأن بنى لك السماوات، والأرَضين بيد قُدرته، ولم يتَّكل إكرامه لك بذلك إلى ملائكته، ولا بأحد من بريَّته، وأجرى لك البحارَ، وشقَّ الأنهار، وغرس الأشجار، وأخرج الثمارَ، وعمَّرَ الدِّيارَ، وجعل الشَّمسَ، والقمرَ سراجًا لليل، والنَّهار»[1].

ويذكر له في وصيَّته نِعَم الله الظَّاهرة، والباطنة، ومِنَنِه قبل أن يأتي إلى الدُّنيا: «ثمَّ تذكَّر يا ولدي ذكَّرك الله جلَّ جلالُه بعظمتِه، وملأ قلبك هيبته، كيف نقلك من ظهر آدم عليه السلام إلى بطن حوَّاء، ومن آباء إلى أمَّهات، حتَّى أخرجَك في هذه الأوقات، وسلَّمك ممَّا جرى على الأُمم السَّالفة من الهلَكات، كما قدَّمنا الإشارة إليه، وأكمل صورتك، وجمَّل همَّتك»[2].

وممَّا ذكره في وصيَّته لابنه: «كيف أجرى الماء الذي تحتاج إليه من العيون، ومن تحت الأرَضين، وفتقها بقُدرته، وفيها ماء هو بين صخرٍ أصمَّ تعجز عن فتقِهِ قوَّة العالمين؛ ثمَّ كيف أنزل ما أنزله من السَّحاب المُسخَّر بين السَّماء والأرض..»[3].

فهذا السُّلوك يختم به، ويستأنف: «ثمَّ تذكَّر يا ولدي ذكَّرك الله جلَّ جلاله بعظمتِه، وملأ قلبَك هيبتَه»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٤.
(٢) المصدر نفسه: ١٤٥.
(٣) المصدر نفسه: ١٤٩-١٥٠.
(٤) المصدر نفسه: ١٤٥.

اعتقاد السيِّد منشأ ذكر الحضور تذكُّر ولاية الله ﷻ، وتدبيره: «ذكَّرك الله جلَّ جلالُه بما يُغني عن ذكرِكَ، وتذكُّركَ من ولاية تدبيره لتذكيرِك»[1].

إنَّ كلَّ شخصٍ يذكر الله ﷻ، لا يحتاج إلى ذِكر غيرِه[2].

٣-٢-٢. تُطرح مسألةُ المُراقبة بعد مسألة ذِكر الحضور، ويعدُّ الذِّكرُ مقدِّمةً، والمُراقبة ذا المُقدِّمة، وتعدُّ المُراقبة مسألةً مستقلَّة، وأصلًا من أصول السُّلوك العمليّ، المعنويّ، والعرفانيّ، وقد يُطلق على علمِ العرفانِ (علم المُراقبة).

وينقل المرحومُ الميرزا جواد الملكيّ التَّبريزيّ، الذي يعدُّ الطَّالب الأوَّل للمرحوم ملَّا حسين قُلي همدانيّ، عن أُستاذه يقول عن السيِّد ابن طاووس في مقام المُراقبة: «ما جاء مثلُه في علم المُراقبة في الأمَّة من طبقة الرعيَّة»[3].

ومن هنا أطلق الآخرون على السيِّد ابن طاووس «جمال العارفين، وسيِّد المُراقبين»[4].

وتعدُّ المُراقبةُ من أهمِّ ملامح منهج سُلوك السيِّد، وهي بذرةُ كلِّ الكمالات، كما يعتقد السيِّد من جُملة التّكاليف الواجبة على العبد بعد معرفةِ الله ﷻ المُراقبة[5].

ويرى أنَّ أهميَّة مسألة تكليف الله ﷻ الوصول إلى حدودِها، وببيانٍ آخر: أن يتحرَّك العبدُ في حدود التَّكيف، وأن لا يخرج عنها، ويترقَّب من العبد بعد المعرفة المُراقبة،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المراقبات: ١٤٢.
(٤) محمَّدي، كيلاني، محمَّد، شرح مناجاة الشعبانيَّة: ٢٤، ٣١. (فارسيّ).
(٥) لاحظ: فتح الأبواب: ٣٠٥.

ودليل على أهميَّة المُراقبة، فضلًا عن أنَّ المُراقبة طريقٌ، ومن كان مشغولًا عنِ المُراقبة فلا يتمُّ معه التَّكليف[1].

ولا يخفى أنَّ المُراقبة هنا قبل المعرفة؛ فالتَّكليف يحصل بمعرفة أوَّليَّة، وإجماليَّة، ولكن بعد الاعتقاد الوصول إلى المعرفة التَّفصيليَّة لله ﷻ؛ فالمُراقبة مكانها في جميع التَّكاليف يجري ويسري، بمعنى قبل، وحين، وبعد كلِّ تكليفٍ حتَّى للوصول إلى معرفة جديدة شرطها المُراقبة.

ومن الواضح عندما تُؤخذ المُراقبة على نحو التَّكليف؛ فالشَّخص الذي في المأمور به لا يحصل على نتيجةٍ؛ فهناك نتائج عظيمة؛ لأنَّ بالحقيقة المُراقبة منشأ ظهور كلِّ الكمالات، والمعارف.

وعبر مُتابعة جميع آثار السيِّد؛ فمضمون نظامه وهيكله المُراقبة في الظَّاهر، والباطن؛ أي المُراقبة في الظَّاهر، والباطن، والمُراقبة في الزَّمان، والمكان، واللسان، والأفعال، والسُّلوك، والفكر، والذِّكر، والقلب..

واعتمد في هذه النَّظريَّة على القرآن الكريم، والرُّوايات، باعتقاد السيِّد هناك أوقاتٌ معيَّنة مهمَّة، مثلًا العشَرة الأولى من شهر ذي الحجَّة: «اعلمْ أنَّ تعيين الله جلَّ جلالُه على أوقات معيَّنة [معينات] تذكر [نذكر] فيها جلَّ جلالُه دون ما لا يجري مُجراها من الأوقات يقتضي ذلك تعظيمُها، ومُصاحبتها بذكرِه الشَّريف بالعُقول، والقُلوب، وأن لا يخليها العبد من إذكار نفسِه بأنَّها حاضرةٌ بين يدي علَّام الغُيوب، وأن يلزمَها

(١) «و اعلم أنَّ طبعك ونفسك وكل شاغل لك عن مولاك يستغيث إليك بلسان الحال ويقول لك: لا تلتفت إليهم، ويحذِّرونك من الأهوال. والعقل من ورائهم يستغيث ويحذِّرك أعظم التحذير، ومولاك من وراء الجميع ينكر عليك إيثارهم عليه أعظم النكير، ويقول لك: كلُّ ما يشغلك عنِّي فهو حقير صغير، فكيف تُشغَل بالحقير عن الكبير، ويذكِّرك أن بيده كلُّ ما تحتاج إليه من نفعٍ كثيرٍ ويسير». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٩. (م)

المُراقبة التامَّة في حركاتِه، وسكناته، ويطهِّرها من دنَس غفلاتِه؛ حيثُ قدِ اختارَها الله جلَّ جلالُه لذكرِه، وجعلَها محلًّا لخزانة سرِّه، وأهلًا لتشريفها بتعظيمِ قدرِه، ومنزلًا لإطلاق برِّهِ، ومنهلًا للتلذُّذ بكاسات شكرِه، وهذا عشر ذي الحِجَّة من جُملة تلك الأوقات، قال الله جلَّ جلالُه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾»[1].

وبتعبير العلَّامة الطباطبائيّ في ذيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡ﴾[2]: المُراقبة في السُّلوك الإذن بالدُّخول إلى الحقائق الباطنيَّة، قال: «إيذانٌ بالحفظِ، والمُراقبة»[3].

ومن هذه الجهة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[4]، ﴿هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾[5].

وتبيَّن في ضوء ما تقدَّم أنَّه ليس هناك مقامٌ معلومٌ للمُراقبة؛ فهي ساريةٌ، وجاريةٌ في جميع الأماكن، وكلِّ الأوقات، وفي كلِّ أفعال الإنسان، وتمام مراحله، ويُدرك السَّالكُ ذكرَ الحُضور في كلِّ مرتبةٍ، ومرحلةٍ منه، ويتورَّع السَّالكُ عن المعصية في هذه المرتبة، والمرحلة.

ومن بعد ذلك يتلقَّى الجديد، ويرى السيِّد حالَ السَّالكين بقدرِ ما عندهم من مراقبة: «فحالُهم في الدَّرجات على قدر استمرار المُراقبات»[6].

والمهمُّ جدًّا هو المُراقبة القلبيَّة، والقبليَّة، تعطي للسَّالك روحيَّةً، وطاقةً؛ فيتوافر

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٣١٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.
(٣) الميزان: ٥/ ٢٤٠.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٧
(٦) إقبال الأعمال: ١/ ٨٤.

عـلى قوَّةٍ أكثر، ودقَّة أكثر، وعمقٍ أكثر من ذي قبل، كـما قال العلَّامة الطباطبائيّ: «بيان ذلـك أنَّ العبـد إذا أخذ إيمانَه في الاشـتداد، والازديـاد، انجذبَتْ نفسُـه إلى التَّفكير في ناحية ربِّه، واسـتحضار أسمائه الحُسـنى، وصفاته الجميلة المنزَّهة عن النَّقصِ، والشَّين، ولا تـزال تزيد نفسـه انجذابًـا، وتترقَّى مراقبةً حتَّى صـار يعبدُ الله كأنَّه يـراهُ، وأنَّ ربَّه يراهُ»(١).

ويذكر لنا السـيِّد الصَّومَ مثـالًا من العِبادات؛ إذ يقول: «اعلـمْ أنَّ للصَّائم معاملةً كُلِّفَ باستمرارِها قبل صومِه، ومع صومِه، وبعد صومِه؛ فهي مطلوبةٌ منه قبل الإفطار، ومعه، وبعده في الليل، والنَّهار، وهي طهارة قلبِه ممَّا يكرهُه مولاه، واسـتعمال جوارحِه فيما يقرِّبُه من رضاه؛ فهذا أمرٌ مرادٌ من العبد مدَّةَ مقامِه في دنياه»(٢).

فهـو يقسِّـم هـذه الأهميَّة على ثلاثـة مراحـل: «قبل صومِـه، ومع صومـه، وبعد صومِه».

إذا كان الصَّـومُ افتراضًـا لنمـوذجٍ للعبـادة؛ فيمكـن أن نفهمَ منه ثـلاثَ مراحل للمُراقبة في السلوك؛ أي: المُراقبة قبل العملِ، وحينَه، وبعدَه.

وفضلًا عن ذلك، ينبغي المُراقبة في جميع الأعمال العباديَّة، والسُّـلوك، مثلًا يفترض المُراقبـة في الصَّـلاة في جميع المراحل، وهكذا الإنسـان عند المُراقبة له نظرٌ في المُحاسـبة، والمُراقبة في المُحاسبة، وعدمها.

ويعتقـد السـيِّد أنَّـه ينبغي عـلى الإنسـان المُراقبة، ويجعـل الملائكة تسـجِّل أعمالَه الحسَـنة؛ لكي تقدَّم بين يدي المولى ﷻ، وهي حسَـنةٌ: «وصاحبْهم أحسـنَ مصاحبة في سـائر الأوقات، ولا يسمعوا منك إلَّا جميلًا، ولا يحضروا معك مجلسًا إلَّا ويرونك عبدًا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٣٧٤.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ١١٢.

لمولاك، ومولاهم، ذليلًا، ولا تكتب على أيديهم إلى سيِّدك الذي أنت مفتقرٌ إليه في أمرك كلِّـه إلَّا كتابًا يصلح أن يعرضَ عليه منزَّهًا ممَّا يكرهُه ويأباه، مملوءًا ممَّا يحبُّه ويرضاه، كما جـرتْ عادةُ المملوك الضَّعيـف إذا كتب كتابًا إلى مالكِه الأعظـم، صاحب المقام العالي الشَّـريف»[1].

ويرى السيِّد أنَّ دقائق المراحل للمُراقبة أكثر من المُراقبات، قبل، وبعد.

«فـإنَّ العبد ما يخلو من تقصيرٍ في مُراقبة مولاه، ويكفيه أنَّه يعظِّم ما صغر، ويصغِّر مـا عظم من دُنياه، وأُخراه، ويكفيه أنَّه يغضبُ لنفسـه، ولمن يعـزُّ عليه أكثر ممَّا يغضب لله جـلَّ جلالُه المُحسـن إليه، ويكفيه أنَّه ما هو راضٍ بتدبير مالكِـه جلَّ جلالُه بالكليَّة، وأنَّـه يعارضه بخاطـرِه، وقلبه، وعقلـه، معارضة المماثل، أو الشريـك، أو العبد السيِّء العبوديَّة.

وإذا تأخَّرت عنك إجابةُ الدُّعاء، وبلوغ الرَّجاء؛ فابكِ على نفسِك بكاءَ من يعرفُ أنَّ الذَّنبَ له، وأنَّه يستحقُّ لأكثر من ذلك الجفاء»[2].

ويسجِّل أنَّ فلسفة خلق الأعضاء الطَّاعة، والمُراقبة[3].

ويعتقد أنَّ المُراقبة تورِث سـعادةَ الدُّنيـا، والآخرة: «السَّـعادة الدِّينيَّة، والدُّنيويَّة؛ فإنَّهما حاصلتانِ في مُراقبة تلك الجلالة الإلهيَّة»[4].

ويشـير إلى أنَّ هنـاك من يصلح ما يتعلَّـق بالجوارح، ولكن لم يحافظـوا على القلب: «صنـفٌ دخلوا في الصّـوم، وأصلحوا ما يتعلّـق بالجوارح، ولكـن لم يحفظوا القلب من

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ٧٣.
(٣) لاحظ: المصدر نفسه: ١٧٤.
(٤) فلاح السائل: ٢٧٠.

الخطَرات الشَّـاغلة عن العمل الصَّالح فهم كعاملٍ دخلَ على سلطانِه، وقد أصلح رعيَّته بلسانِه، وأهمل ما يتعلَّق بإصلاح شأنِه؛ فهو مسؤولٌ عن تقديم إصلاح الرعيَّة على إصلاح ذاتِه، وكيف أخَّر مقدَّمًا، وقدَّم مؤخَّرًا، وخاطر مع المُطَّلع على إرادته»[1].

ويرى أنَّه إذا لم يكن الشَّخصُ من أهل المُراقبة، وليس عنده حضورٌ ذهنيّ، وقلبيّ؛ فليستثمِرِ السُّلوك الزَّمانيّ[2].

«عمَّرَ اللهُ جلَّ جلالُه قلبَكَ بمُكاشفتِه، وجلال نعمتِه، ومراقبتِه»[3].

ويشـير إلى أنَّ نـوم أهـل المُراقبة يختلف عن نـوم غيرهم؛ ولذا يدعـو لولده محمَّد «جعله [منامك] الله جلَّ جلاله كنوم ذوي المعارف، والمُراقبات»[4].

٣-٢-٣. الأدب مع الله

تعـدُّ رعايـةُ الآداب في حـضرةِ، ومحضر الله ﷻ من أهمِّ مسـائل العرفـان العمليّ، وسلوك السَّـائلين، وتعدُّ من شؤون المُراقبة؛ ولذا نطالع في آثار السيِّد كثيرًا ما يذكرُها، ونحن نذكرُ طرفًا منها هنا.

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٨٣.

(٢) لتوضيـح المـرام: «فصـل فيما نذكره من تمـام إحياء ليلة النصف من شـعبان، ومـا يختم به من التوصُّل في سلامتها من النقصان: اعلم أنَّ من وفِّق لعمل [للعمل] كلَّما [كما] ذكرناه على الوجه الذي يليق بمراقبة الله جلَّ جلالُه، و ذكر العقل والقلب بأن الله جلَّ جلالُه يراه، فإنَّه يستبعد أن يبقـى معـه شيء من هذه الليلة المذكورة خاليًا عن الأعمال المـبرورة، وإن كان له عذر عن بعض مـا رويناه وشرحنـاه، أو كان عمله له على عـادة أهل الغفلة في صورة العمل والقلب مشـغول بدنيـاه، فربَّـما بقـي معه وقت من هـذه الليلة، فإيَّـاه ثمَّ إيَّـاه أن يضيعه بما يضـرُّه من الحركات والسـكنات، أو بـما لا ينفعه بعد المماتِ، فقد قدَّمنـا في الروايات المتظاهـرات أنَّ هذه الليلة من الأربع ليالٍ التي تحيا بالعبادات». إقبال الأعمال: ٢/ ٧١٨. (م).

(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٥٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٨.

فـالأدب هو الدُّخـول، وإذن العبد، هذه المسـألة تحظى بأهميَّةٍ عند السـيِّد، يكتب لابنـه محمَّـد: «وتتأدَّب في المشي تـأدُّبَ الماشي بحضرة ملـك المُلوك إليه الـذي لا غناءَ عنه»[1].

ومـن المُلاحظات التي سـجَّلها السـيِّد عـلى أدب السُّـلوك: «وحيـثُ قد ذكرت لـك يـا ولـدي بعضَ مـا أجـراهُ الله جـلَّ جلالُه عـلى خواطـري في أدب الحـركاتِ، والتصـرُّفات»[2].

ففي نظر السيِّد الأدب هو الإكثار من الذِّكرِ، والعرفاء المؤدَّبون يسعون في الإكثار من الذِّكـر الإلهيّ: «أنَّ الله جـلَّ جلالُه يقـول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾.. فالعبيدُ العارفون المؤدَّبـون يجتهدون في الإكثار من ذِكر مولاهم الذي يراهُـم؛ ليذكرهم، أو لعلَّه بفضلِه يرضى عنهم، أو يرضاهم»[3].

ونقرأ فيما كتبه السـيِّد وتمنَّاه لولده محمَّد عـن مراحل الأدب مع الله عزَّ وجلَّ «فأريد من رحمتِـه أن يملأ قلبك من معرفتـه، وهيبته، ورحمته، ويسـتعمل عقلك، وجوارحك في خدمته، وطاعته، حتَّى يكون إن جلسـت فتكون ذاكرًا أنَّك بين يديه، وإن أقمت تكون ذاكـرًا أنَّ قوَّة قدرتك على المشي منه، وتتأدَّب في المشي تأدُّب الماشي بحضرة ملك المُلوك إليه الذي لا غناءَ عنه»[4].

«فاجتهـدْ أن يكون قلبُك، وعقلُك مصاحبًـا له بالتَّعظيم، وجوارحك محافظة على سـلوك السَّـبيل المُسـتقيم؛ فمن عادة المملوك المؤدَّب الكامل أن يكونَ موافقًا لمالكه في

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٨.
(٣) فلاح السائل: ٤١.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٦.

سائر مسالكِه»[1].

ويعتقد السيِّد أنَّ الأدب توأمٌ مع الصِّدق[2].

إنَّ الصِّدقَ يعدُّ الأساس من شروط المُكاشفة، كما تقدَّم، ويشير السيِّد إلى معنى الصِّدق بقوله: «أقول: ومعنى قولي أن يكونَ هذا قولك عبادة، ومعاملة؛ أي: أن يكونَ الله جلَّ جلالُه في قلبك، وعند عقلك عظيمًا على قدر ما وهبَك من معرفة ذاتِه، وصفاتِه الكاملة؛ فتقصد بهذا الاعتقاد في عظمته، وبهذا اللفظ في قولك: الله أكبر، مجرَّد عبادته؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة. أقول: وأمَّا قولي أن يكون صادقًا؛ فأريد بذلك أن يكون فعلُك لقولك موافقًا، بحيث إذا قلت: الله أكبر تكون سريرتُك موافقةً لعلانيَّتك في أنَّه لا شيءَ أعظم منه جلَّ جلالُه في قلبك، وعقلك، ونفسك، ونيَّتك، ولا يكون شيءٌ أعزَّ عليك منه، ولا يشغلك في تلك الحال شيء عنه»[3].

«ومعنى قولي صادقًا، أن تكون سريرتُه موافقةً لعلانيَّته في أنَّه ما قصد الحضورَ في ذلك المكان، والوقوف فيه إلَّا لله جلَّ جلالُه، وطلب مراضيه»[4].

«ومعنى قولي أن يكون صادقًا؛ لأنَّه إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكان إنَّما يعبد الله جلَّ جلالُه لما يرجوه منه سبحانَه من نفعٍ عاجلٍ، أو ثوابٍ آجلٍ، أو دفعِ محذورٍ في

(١) «أقول إنَّ الدخول في شهر شوَّال، فهو كما قدمناه من الدخول في شهر رجب، فإن ظفرت به ففيه بلاغ في المقال، وإن لم تظفر بما أشرنا إليه، فليكن دخولك في شهر شوَّال دخول المصدِّقين، فإنَّه شهر حرام، له حقُّ التعظيم بالمقال والفعال، كمن دخل في دروب مكَّة إلى مسجدها الأعظم، فلا بدَّ أن يكون لدخوله كيفيَّة على قدر تصديقه صاحب المسجد المعظَّم، فاجتهد أن يكون قلبك وعقلك مصاحبًا له بالتعظيم، وجوارحك محافظة على سلوك السبيل المستقيم، فمن عادة المملوك المؤدَّب الكامل أن يكون موافقًا لمالكه في سائر مسالكه». إقبال الأعمال: ١/ ٣٠٥.

(٢) فلاح السائل: ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ٨٩.

الدُّنيا، أو في يوم النُّشور؛ فإنَّما يكون على الحقيقة كأنَّك تعبد نفسَك، وتكون عبادتُك لأجلِها، ولأجل شهواتِك، ولذَّاتك، ولا تكون عابدًا لله جلَّ جلالُه؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة..»[1].

ويعدُّ السيِّد أن تكون أفعالُه، وأقوالُه تابعةً للنبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام، مصدِّقًا بها[2].

ويرى أنَّ الشَّخصَ السَّائر في إرادة الله عزَّ وجلَّ في تصرُّفاته بالله، وفي الله، ومن الله، ولله؛ فهذا مقامٌ رفيعٌ؛ بل أكمل مقام يصِلُ إليه العبدُ في الأدب مع الله عزَّ وجلَّ، كما في أمير المؤمنين عليه السلام: «بالله، وفي الله، ومن الله، ولله، وأن قد جعل إرادته [أي: أمير المؤمنين عليه السلام] إرادة الله، وكراهيته كراهية الله، وهو أكمل مقام العبد في الأدب مع الله؛ فهل تجد في أمَّة محمد صلى الله عليه وآله أحدًا يقاربُه، أو يقارنه في الكمال؟»[3].

(١) فلاح السائل: ١٠٥

(٢) المصدر نفسه: ١٠٥.

(٣) «كان عليٌّ عليه السلام على ما يشهد به تواريخ العلماء من سائر أرباب المذاهب، إذ كان في حروبه لا يظهر عليه إلَّا أنَّه يقهر معاوية، ويكون هو في غاية الظافريَّة والغالبيَّة، وهذا جمع منه صلى الله عليه وآله بين الأضداد، وخلاف سجايا من هو دونه من العباد.

ومن عجائب ذلك أنَّه كان قد صار بحيث لا يتصرَّف في ذاته ولا في صفاته وحركاته وسكناته لإرادته، بل بحسب إرادة ربِّه و مولاه الذي يعلمه كأنَّه يراه، وهذه آيةٌ باهرة وسرٌّ عظيم لمن عرف معناه.

ومن عجيب تصديق ما قلناه، ما رأيت من جوابه عليه السلام لـمَّا سُئل عن شيء من الأمور المتجدِّدة له، وهو أنَّ محمَّد بن عليّ الرازي ذكر في كتاب الشفاء والجلاء في أوائل النصف الثاني من الكتاب، فقال ما هذا لفظه: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ بِلَالٍ عَمَّنْ ذَكَرَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا أَحْضَرَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَدْ وَجَّهَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، فَقَالَ لَهُ: **أُحْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَلَا تُجَاوِزْهُ**. فَلَمَّا أَدْبَرَ، قَالَ: **كَأَنِّي بِهِ وَ قَدْ خُدِعَ**. قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلِمَ تُوَجِّهُهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْدُوعٌ؟ فَقَالَ: **يَا بُنَيَّ لَوْ عَمِلَ اللهُ فِي خَلْقِهِ**=

ويعـدُّ السـيِّد الأدبَ في العبوديَّـة موافـرًا للأهليَّـة للعبـد، بمعنـى أنَّـه يـرى أنَّ الأهليَّـة للتلقِّـي منوطـةٌ ومشروطةٌ ومسـبوقةٌ بالسَّـعي الأكثـر للعبـد في رِعاية أدب العبوديَّة.

ويعتقد السيِّد أنَّ سعي العبد في أدب العبوديَّة هو نحو من شُكر النِّعمة، والقلَّة من ذلك يعدُّ كفرانًا بالنِّعمة[1].

ويعتقـد أنَّ الدُّخـولَ في دائرة التَّكليـف ينبغي حفظُ حُرمـة الله ﷻ، ولزوم أدب العبوديَّـة، ومعرفة أُموره ﷻ، مـن أنَّه يراه في كلِّ مكانٍ، وأنَّـه في كلِّ مكانٍ، وأن تكون إرادتُـه إرادةَ الله ﷻ في حركاتِـه، وسـكنَاتِه، وعَلاقتـه أكثـر مـن العلاقـات المُتعارفة، ومقيَّـد بـما أمرَ بـه: «ينبغي أن يكـون العبدُ مـع الله جلَّ جلالُـه؛ بل أعظـم، وأعظم، وأعظم لأجـل التَّفاوت العظيم بـين الله جلَّ جلالُه ربِّ الأرباب، ومالك الأسـباب، وبـين سـلطانٍ خُلِقَ مِنْ تُـرابٍ، ومِنْ طِينٍ، ومـاءٍ مَهِينٍ يؤول أمرُه إلى الخـراب والفَناء والذَّهاب»[2].

ويشير إلى أنَّ ثمَّة علاقة بين مراحل الخلق، وأدب العبوديَّة: «ورتَّب خلقك من تراب يوطأ بالأقدام؛ ثمَّ من نُطفة حكم بنجاسـتها تأديبًا لكَ من خطر التكبُّر، والاسـتعظام؛

=بِعِلْمِهِ، مَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ. هذا آخر الحديث المذكور.
أفـلا تـرى علمه بالأحـوال، وكمال جوابه عند السـؤال، وقولـه: **لو عمـل الله في خلقه بعلمه، ما احتجَّ عليهم بالرُّسـل**، ولم يقل لو عملت أنا بعلمي، يريد أنَّني أتصرَّف في نفسي وغيري بالله وفي الله ومن الله ولله، وأن قد جعل إرادته إرادة الله، وكراهيته كراهية الله، وهو أكمل مقام العبد في الأدب مـع الله، فهـل تجـد في أمَّة محمَّدﷺ أحدا يقاربـه أو يقارنه في الكـمال؟». الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢/ ٥١١. (م)

(١) الإقبال: ٣١٤.

(٢) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٢٩.

ثـمَّ مـن علَقةٍ حكم أيضًا أنَّها نجِسـة في شريعة الإسـلام؛ ثمَّ من مُضغـة خاليةٍ من تمام الجـوارح، والعلوم، والأفهام؛ ثمَّ كيف كمَّل لك الجـوارح التي تحتاج إليها على التَّمام، وجعلَهـا من أصولٍ ضعيفة مبنيَّة على أسـاس الانهدام؛ ثمَّ جعلـك في بطن أمِّك، وهو حبسٌ محجوبٌ عن الأنام؛ ثمَّ أوَّل ما غذَّاك به من الطَّعام دم الحيض المحكوم بنجاسـته فيـما ارتضاه من الأحكام؛ ثمَّ جعـل مخارج النُّطفة، ومخرجك إلى دُنيـا كدِرَةٍ من مجاري البول، والدِّماء النَّجِسة المُستقذَرة.

لعـلَّ جميع ذلك ليكـون عليـك أدبَ العبوديَّة، وتسـلم من المُنازعـة، والمُعارضة للجلالة الإلهيَّة، حتَّى جعلَك لا تزال حاملًا للعُذرة في بطنك؛ ثمَّ ذلك بأن تجعلَ غُسلَها منك بيدك كلَّ يومٍ، وليلةٍ على صفات متنفِّرة.

فتـارةً عاملَك بالإكـرام العظيم؛ لعلَّ مـرادَه أن تعـرِفَ قدرتَـه، ونعمتَه، وترزق كرامته، وتـارةً عاملَك برياضة التَّأديب؛ لتخاف مؤاخذَته، وسـطوته، وإهانته، وتفهم ربوبيَّته»[1].

ويقـول في موضعٍ آخر حـول هدف الله ﷻ، والفقر لـه في كلِّ الأحوال: «ولم يغنِ جـلَّ جلالُه شـيئًا من هذه المواهب عنه سـبحانَه؛ لعـلَّ مرادَه بذلك أن لا ينسـى العبد إحسـانه، ولا يضيـع حرمته، وسُـلطانه؛ بل أفقـرهُ في كلِّ حالٍ إليه؛ ليـدلَّ جلَّ جلالُه بذلـك عليه، وأغنـاهُ من المُمكـن، والاختيار؛ لينفـق غناه في عـمارة الأسرار، وطهارة الأفكار»[2].

ويقـدِّم فهـمًا لمقـام سـلطنة الله ﷻ «في طلبـك الحوائـج مـن سُـلطان العالمين كما يكـون لـو طلبت حاجـة مهمَّة من بعـض ملوك الآدميِّـين؛ فإنَّك تتوصَّـل في رضاهم

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٦.
(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣-٤

بـكلِّ اجتِهـادك وقـتَ حاجتك إليهـم؛ فكذلك اجتهـد في رضا الله ﷻ عنـد حاجتِك إليه»[1].

ثمَّ إنَّ السـيِّد يصوِّر ويرسـمُ لنا مكانة العبد في قِبـال الله ﷻ الحفاظ على حُرمته في محضرِه ﷻ: «واعلمْ أنَّ المُراد من قراءتك القرآنَ أن تسـتحضِرَ في عقلك، وقلبك أنَّ الله جلَّ جلالُه يقرأ عليك كلامَه بلسـانكَ؛ فتسـمع مُقدَّسَ كلامِـه، وتغترف بقدر إنعامه، وتسـتفهم المُراد مـن آدابه، ومواعظِه، وأحكامـه؛ فإن قلت: لا يقـوم ضعف البشريَّة، والأجزاء الترابيَّة بقدر معرفة حُرمة الجلالة الإلهيَّة؛ فليكن أدبُك في الاستماع، والانتفاع عـلى مقدار [قدر] أنَّه لو قـرأ عليك بعضُ ملوك الدُّنيا كلامًا قـد نظمه، وأراد منك أن تفهم معانيه، وتعمل بها، وتعظِّمه، فلا ترضى لنفسـك، وأنتَ مقرٌّ بالإسـلام أن يكون الله جلَّ جلالُه دون مقام ملك في الدنيا يزول ملكه لبعض الأحلام، وإن قلتَ: لا أقدرُ على بلوغ هذه المرتبة الشَّريفة؛ فلا أقلَّ أن يكونَ اسـتماعُك، وانتفاعك بالقراءة المُقدَّسة المُنيفـة كما لو جـاءك كتابٌ من والدك، أو ولدِك القريب إليـك، أو من صديقِك العزيز عليـك؛ فإنَّك إن أنزلتَ الله جلَّ جلالُه، وكلامه المُعظَّم دون هذه المراتب؛ فقد عرَّضتَ نفسك الضَّعيفة لصفقةِ خاسرٍ، أو خائب»[2].

«فكيف جاز أن يكون الأدبُ مع علم الله جلَّ جلالُه بنا، وقُدرته علينا، وإحسـانه إلينا، دون هؤلاءِ الذين لا نبالي بالإعراض عنهم»[3].

«ويريـدون منـك أن تحترمَهـم أكثر مـن احترامِك لجلالتِـه، وأن تكـون محبَّتُك، ومودَّتُـك لهـم أكثـرَ مـن محبَّتـه؛ فإيَّـاك أن تقتديَ بهـم في التَّهويـن بمـولاك؛ فقبيح،

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٢٦-٣٢٧، الاقبال: ٣٠٧.
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ١١١.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٧.

وعظيم، وفظيع أن يساوى العبدُ بالمولى، وخاصّةً، وهو يراك، هذا فعلُ من قد هوَّن بالهلاك؛ فأدخل فيها دخول المُشتاق إليها، وذوي السِّباق المُنافسين عليها»[1].

ثمَّ ينقل في هذا السَّياق مقالًا للمُعتزلة، وينقده، وإليك نصُّه: «اعلمْ أنَّني اعتبرتُ ما وقفت عليه ممَّا ذكره شيوخ المُعتزلة من المتكلِّمين، وقول من تابعَهم على قولهم من المُتقدِّمين، والمُتأخِّرين في أنَّهم ادَّعوا أنَّ للمُكلَّف مباحًا ليس له صفة زائدة على حسنه، ولا أدب من الله، ورسوله صلى الله عليه وآله زائد على إباحته؛ فما وجدتُ هذا القولَ صحيحًا مع كثرة القائلين به، والمُعتقدين لصحَّته، وإنَّما قلتُ ذلك لأمورٍ، منها ما أذكره على سبيل الجُملة، ومنها ما أذكرُه على سبيل بعض التَّفصيل.

أمَّا الذي أذكره على سبيل الجُملة، فإنَّني وجدتُ العبد المُكلَّف حاضرًا بين يدي الله جلَّ جلالُه في سائر الحركات، والسَّكنات، وفي سائر الأوقات، والله جلَّ جلالُه مطَّلع عليه بإحاطة العِلم به، وبالإحسان إليه، ولله جلَّ جلالُه حُرمة باهرةٌ، وهيبة قاهرةٌ، وجلالة ظاهرة، ونِعم متواترة، يستحقُّ من عبده أن يعرفَها، ويعبده بالقيام بحقِّها؛

(١) «فأولها، الصَّلاة، فاعلم أنَّها تستدعي لك الحضور بين يدي مالك الأحياء والأموات، فبادر إليها بالتشريف والاستبشار بتلك العنايات، واترك كلَّ شغل لا يعذرك الله جلَّ جلاله في الاشتغال به عنها، فإنَّه يصير ذلك الشغل مخالفة على مولاك وتصغيرًا لأمره، وتخاطر مخاطرة لا تأمن أنَّك لا تسلم منها. ولا تلتفت إلى قول من يسهِّل عليك تأخيرها عن أوائل الأوقات، وجرِّب ذلك القائل لو كلَّفك حاجة وأخَّرتها عن أوائل قدرتك، أفما يكون يلومك ويشهد أنَّك مستحقٌّ للمعاتبات، وما تعرف حقَّ المودَّات، ولكنَّهم جاهلون بالله جلَّ جلاله، وعظمته ونعمته.

ويريدون منك أن تحترمهم أكثر من احترامك لجلالته، وأن تكون محبَّتك ومودَّتك لهم أكثر من محبَّته، فإيَّاك أن تقتدي بهم في التهوين بمولاك، فقبيح، وعظيم، وفظيع أن يساوى العبد بالمولى، وخاصَّة وهو يراك. هذا فعل من قد هوَّن بالهلاك، فأُدخل فيها دخول المشتاق إليها، وذوي السباق المنافسين عليها». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٧. (م).

لكونه جلَّ جلالُه أهلًا للعبادة بذلك؛ فلا ينفكُّ العبد من تكليفِه بأدبِ العُبوديَّة في سائر المواقف، والمسالك؛ فأيُّ حركةٍ، أو سكون يخلو فيها العبد من اطِّلاع الله ﷻ عليه، ومن إحسانه إليه، ومن لزوم علم العبد أنَّه بين يدي مولاه، وأنَّه يراهُ حتَّى يكون متصرِّفًا فيها بإباحة مُطلقة تصرُّفَ الدَّوابِّ، وتكون خاليةً من التَّكليف بشيءٍ من الآداب، هذا لا يقبلُه من نظرَ بعين الصَّواب، واعتمد على الله ﷻ في صدق الألباب؛ فإنَّ الإنسان يعلم من نفسه أنَّ على العبد أدبًا في العبوديَّة متى كان سيِّدهُ يراه لا يجوز أن ينفكَّ العبدُ منه إمَّا أدبًا قليلًا، أو كثيرًا بخلاف حال العبد إذا كان سيِّدهُ لا يراهُ، وهذا واضحٌ لا يخفى على مَن عَرفَ معناه.

جواب آخر على سبيل الجُملة، اعلمْ أنَّني عرفتُ أنَّ كلَّ ما في الوجود ممَّا يسمِّيه النَّاسُ مباحات، لم يزل مُلكًا لله تعالى جلَّ جلالُه؛ فلمَّا أطلقه للمُكلَّفين، وأجراه عليهم على جهة الإحسان إليهم، وكان إطلاقُه، وإجراؤه مستمرًّا مع بقائهم، وجبَ عليهم استمرارُ أدب الاعتراف بحقِّ هذه النِّعمة، والقِيام بشكرِها؛ فإذا لم يكن للمُكلَّف انفكاكٌ من استمرار هذه النِّعم؛ فكيف صحَّ أن يكون نعمةٌ منها مستمرَّةً في وقتٍ من الأوقات خاليةً من استمرار أدب الاعتراف بها، وشكرها، حتَّى تصيرَ تلك النِّعمة كما يقولون خاليةً من صفةٍ زائدةٍ على حُسنها مثل إباحتها لغير المُكلَّفين، وللدَّوابِّ. إنَّ القول بذلك بعيدٌ من الصَّواب، وهذا واضحٌ لأولي الألباب»[1].

(١) ثمَّ ينقل السيِّد ما يعضد كلامه من الروايات، ننقل طرفًا منها: «أمَّا روايات الصَّادقين ومولانا زين العابدين عليه السلام، فهي كثيرة لا نطول بنشرها، لكنَّا نذكر رواية منها؛ لما نرجوه من فوائد ذكرها.
.. قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ مَرْوَانَ، قَالَ: فَاسْتَعْظَمَ عَبْدُ الْمَلِكِ مَا رَأَى مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ بَيْنَ عَيْنَيْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، لَقَدْ بُيِّنَ عَلَيْكَ الِاجْتِهَادُ، وَلَقَدْ سَبَقَ لَكَ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى، وَأَنْتَ بَضْعَةٌ مِنْ رَسُولِ=

والمُلاحظة المهمَّة هنا هي ينبغي سراية الحضور محضر الله ﷻ في جميع الأحوال، حتَّى في غير العبادات، وهذا أمرٌ ضروريٌّ، ولازمٌ.

وينبغي أن «.. تخرج بسكينةٍ، ووقار، كما تمشي لو كنتَ تمشي بين يدي سلطانٍ عظيم المِقدار، وقلبُك ملآن من جلالِه، ويدُك متمسِّكةٌ بمُقدَّس حبالِه، وعينُك ناظرةٌ إلى عوائد إطلاق نواله، وإفضاله، وعقلك محافظٌ على إقباله»[1].

انتهى القسم الثاني

=اللهﷺ، قَرِيبُ النَّسَبِ، وَكِيدُ السَّبَبِ، وَإِنَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ وَذَوِي عَصْرِكَ، وَلَقَدْ أُوتِيتَ مِنَ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْوَرَعِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ أَحَدٌ مِثْلُكَ وَلَا قَبْلَكَ، إِلَّا مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِكَ. وَأَقْبَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيُقَرِّظُهُ، قَالَ: فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: **كُلُّ مَا ذَكَرْتَهُ وَوَصَفْتَهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَأْيِيدِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَأَيْنَ شُكْرُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَانَ رَسُولُ اللهﷺ يَقِفُ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى يَرِمَ قَدَمَاهُ، وَيَظْمَأُ فِي الصِّيَامِ حَتَّى يُعْصَبَ فُوهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَمْ يَغْفِرْ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُﷺ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ الْحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَوْلَى وَأَبْلَى، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَاللهِ لَوْ تَقَطَّعَتْ أَعْضَائِي، وَسَالَتْ مُقْلَتَايَ عَلَى صَدْرِي، لَنْ أَقُومَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشُكْرِ عُشْرِ الْعَشِيرِ مِنْ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جَمِيعِ نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَادُّونَ، وَلَا يَبْلُغُ حَدَّ نِعْمَةٍ مِنْهَا عَلَيَّ جَمِيعُ حَمْدِ الْحَامِدِينَ، لَا وَاللهِ، أَوْ يَرَانِيَ اللهُ لَا يَشْغَلُنِي شَيْءٌ عَنْ شُكْرِهِ وَذِكْرِهِ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ وَلَا سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ، وَلَوْلَا أَنَّ لِأَهْلِي عَلَيَّ حَقًّا وَلِسَائِرِ النَّاسِ مِنْ خَاصِّهِمْ وَعَامِّهِمْ عَلَيَّ حُقُوقًا لَا يَسَعُنِي إِلَّا الْقِيَامُ بِهَا، حَسَبَ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ، حَتَّى أُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِمْ؛ لَرَمَيْتُ بِطَرْفِي إِلَى السَّمَاءِ، وَبِقَلْبِي إِلَى اللهِ، ثُمَّ لَمْ أَرُدَّهُمَا حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ عَلَى نَفْسِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.** وَبَكَى عليه السلام، وَبَكَى عَبْدُ الْمَلِكِ، وَقَالَ: شَتَّانَ بَيْنَ عَبْدٍ طَلَبَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، وَبَيْنَ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا مِنْ أَيْنَ أَجَابَتْهُ، ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ. ثُمَّ أَقْبَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ حَاجَاتِهِ، وَعَمَّا قَصَدَ لَهُ؛ فَشَفَّعَهُ فِيمَنْ شَفَعَ، وَوَصَلَهُ بِمَالٍ». فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٦٩.

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٠٤.